

# التحليل

مكتبة  
مكتبة

الخبر  
الحشرين



Bibliotheca Alexandrina



0092537

واحد من المع النقاد في فرنسا.  
ولد عام 1936 . درس في المدرسة العليا . وهو  
حامل لدكتوراه الدولة في الأدب . ويعمل حالياً في جامعة  
السوربون الجديدة .

من كتبه :

— مدخل إلى الحياة الأدبية في القرن التاسع عشر —  
(1970) ، منشورات بورداس .

— بروست والرواية — (1978) . منشورات غاليمار .  
باريس .

— القصة الشعرية — (1978) . منشورات بيف .  
باريس .

— الرواية والمغامرات — (1982) . منشورات بيف .  
باريس .

— النقد الأدبي في القرن العشرين (1987) منشورات  
بيلفون . باريس .

**النتائج من القرن العشرين**

## النقد الأدبي في القرن العشرين

حقوق النشر محفوظة

الطبعة الأولى : 1000 / 7 / 1994

الإخراج والتنضيد الضوئي:  
دار الحاسوب للطباعة - حلب

تصميم الغلاف:  
جمال الأبطح



مركز الانماء الحضاري

CENTRE RESEARCH ET CIVILISATION

للدراسات والترجمة والنشر

جان ایف نادیه

النقد  
اللائي

قصة  
الخبر  
العشرين

الهيئة العامة لكتاب	
رقم الترخيص	٢٠٠
رقم التسجيل	٢١٨٥٦

ترجمة: مندر

JEAN-YVES TADIÉ

LA CRITIQUE  
LITTÉRAIRE  
AU XX<sup>e</sup> SIÈCLE

---

نشر هذا الكتاب باتفاق خاص مع دار بلغون / باريس

---

## النقد والوعي

### مدرسة جنيف

مارسيل  
ريمون

1

إن المدرستين اللتين درسناهما أولاً، تهتمان بالأشكال أو بالمجموعات الكبرى، وتبتعدان عن الذات المبدعة للعمل. ثم هناك مجموعة أخرى حظيت باسم «مدرسة جنيف» وإنها لتمييز بعورتها إلى وعي المؤلف. غير أن أعضائها لم يكونوا سويسريين جميعاً؛ فبعضهم لم يدرس في جنيف، ولكن تجمعهم صداقة حميمة. وبعبداً عن الاختلافات العملية والمؤلفات المتباينة، وعن التصور الواحد للأدب وطريقة الكلام عنه، فقد كانوا يشكلون حلقة: فهناك «مارسيل ريمون Marcel Raymond» و«ألبر بيرغوان Alber Beguin» و«جورج بوليه Georges Poulet» و«جان روسيه Jean Russet» و«جان ستاروبانسكي Jean Starobinski». ولم يكن الشكلايين الروس ولا فقهاء الألمان قد حققوا انتشاراً في ذلك الوقت في فرنسا فمعظم الترجمات تمت عام 1970). ولذلك يمكن أن نقول إن هؤلاء هم الذين أتاحوا للشباب الذين التحقوا بالجامعة في عام 1955، النجاة من النزعتين الوضعية والتاريخية اللتين كانتا مهيمنتين في باريس. وسيكون من غير العدل أن ننسبنا طريقة اللسانيات والسيمولوجيا ما تحتفظ به هذه المناهج من الحيوية، وما تحمله من القيم، ومزايا هؤلاء الأدبية. فليس ثمة كتاب أجمل من كتاب جورج بوليه عن هذا الاتجاه «الوعي النقدي». إنه كتاب مشهود عام وبيان (منشورات كورتي، 1961). وإننا لنثني بهذه المناسبة على «جوزيه كورتي» الناشر الذي نشر لمعظم هؤلاء المؤلفين.

كان الإسم الكبير في هذه المدرسة والمؤسس لها من غير تعمد هو «مارسيل ريمون Marcel Raymond» (1897-1984). ولقد تم العثور على مجموعة من المراجع لعمله في نهاية كتاب البير بيغوان ومارسيل ريمون «Celloque de cartigny» (منشورات كورتى، 1979، نصوص قدمها وجمعها ب. غروتزير P. Grotzer): ثلاث عشرة دراسة في النقد الأدبي. إحدى وعشرون مطبوعة ومختارات أدبية. خمس عشرة مقدمة. ترجمة (Wolfflin). مئة وثمان وثمانون مقالاً وعرض كتاب. أربعة وعشرون نصاً شعرياً وخاصاً. وإن هذا العمل الضخم بالإضافة إلى قصة السيرة الذاتية الرائعة (إن السير الذاتية لنقاد الأدب نادرة: جان بومييه، رولان بارت) الملح والرماد (البير، لقاء، 1970، منشورات كورتى 1970) ليسمح بمتابعة الطريق. فقد ابتدأ كل شيء بأطروحتين لرسالة دكتوراة الدولة: «أثر رونسار على الشعر الفرنسي» (1550-1585) والمراجع النقدي لرونسار في فرنسا (1550-1585)، وكان ذلك في عام 1927. وقد أشار مارسيل ريمون نفسه إلى الآلام التي سببتها له هذه التضحية للمعرفة المجردة: لقد خيب السوربون أمني. وأكثر ما كان ذلك تعليم الأدب الفرنسي. فالوقائع حُمِلت إليّ، إنها صيد السوربون الجديدة، أو بعض الجمل. وإنها الذكرى القديمة، أو قُدمت إليّ بعض التحليلات التي تمس الجوهرى. وكان يجب تجاوز التاريخ، وعلم الأدب، بعد كل هذه «التحضيرات اللامتناهية». فهذه ليست أداة حقيقية للثقافة. وسيكون هذا التجاوز ممكناً عبر الأثر الذي أحدثه «ريفير Rivier»، و«فالييري»، والسرياليون. وكذلك عبر اللقاء بالفكر الألماني: ففي ألمانيا، كان «النقد الجديد» في الجامعة فوسلير، كيرتيوس، غوندولف). وإن الحدود هناك بين الآداب، وكذلك بين الآداب والفنون قد أُلغيت. وقد كان ريمون منجذباً إلى تاريخ الأفكار أكثر من انجذابه إلى تحليل الأشكال والأساليب. وإننا لنجد في قلب أعماله قلقاً ميتافيزيقياً. ولذا، فإنه منذ عودته إلى مدينة بال، أخذ في إعداد كتابه الكبير «من



بودلير إلى السرياليين (Coreo, 1933، منشورات كورتى، 1940): إن المسألة الكبرى إنما كانت في ابتداع إجراء يقف على النقيض من الإتجاه التعليمي، فلا يعدد بالسيرة الذاتية، ويختزل الجانب التاريخي إلى الحد الأدنى. ولم يبق إلا النظر في سجية كل شاعر، وكل قصيدة. وذلك بالوقوف على الأسلوب وليس على المعارضة الأسلوبية. وإن هذه لتكون تجربة في القراءة أيضاً وفي الشعر. وإن المرء لينطلق في هذا من شرح النصوص، كما كان يفعل سيبينز، ومن العينات، ليقوم علاقة للجزء مع الكل، والكل مع الجزء، فيلج إلى داخل بنية الجهاز اللغوي. ولكن المقصود في الواقع ليس هو تحديد المنهج بقدر ما هو تحديد لموضوعه؛ لقد كان من المفترض أن يتعلق أسلوب هذه الكتاب بفكرة معينة عن الشعر. إنها تلك التي عرضت في الفصل الأخير: الأسطورة المعاصرة للشعر. وبما أن هذه الأسطورة انفجارية، فقد التبس كتاب ريمون في اللحظة التي ظهر فيها على الأقل بشيء سياسي؛ إنه ارتبط بالوعي الشقي لاضطهاد حضارتنا وكذبها، كما ارتبط بالصراع بين العالم المعاصر وأولئك الذين يرفضون هذا العالم. ولما كان ريمون مهتماً بتحديد وظيفة الشعر، فقد عرض مفهوم الشعرية كل فنان، ومذهبه، وفلسفته، فمما جاء في المدخل عن بودلير، وفيرلين، ورامبو قوله: إن الذي يجمع بين بعض الشعراء هو أن الإنسان يسأل الشعر بوساطتهم حلاً لقضية القدر. وهذا لعمرى مذهب، وموضوعات، لم تصبح لغة بعد. وأما ما يخص الرمزية، فإن ريمون يصطدم بفاليري: فإن كان ثمة مقاطع صوتية من الكلمة تتحرك، فإنما يكون هذا بفضل الإتفاق المتناهي في الدقة مع معنى الكلمة التي تؤلفها بوساطة الذكريات الغامضة التي توقظها هذه الكلمة أكثر مما يوقظها الطريق الخاص بالجرس. وإننا لنفهم أن يجد الناقد نفسه على سجيتها عند السرياليين الذين كانت نظرياتهم تعادل أشعارهم في الأهمية؛ إذ لم يحصل قط أن مدرسة من مدارس الشعر قد خلطت، على هذه الصورة وبوعي تام، قضايا الشعر مع القضايا

الحاسمة للكائن. ويجب مع ذلك أن نقول إن مارسيل ريمون عندما يتكلم عن الشعراء المعاصرين له تحديداً، لم يتنكر لأي واحد منهم، من جوف (Jouve) إلى سوبرفيل (Supervielle)، أو من فارغ (Fargue) إلى سان جون بيرس (Saint-John Perse). ويقود هذا العرض إلى نتيجة عنوانها عبارة عن برنامج ومنهج، إنه: الأسطورة المعاصرة للشعر. وثمة طيقتان من الشعراء: الفنانون، وهؤلاء يتمسكون بالتقاليد والشكل. وهناك المعاصرون للفن، وهؤلاء يبحثون عن المعطيات المباشرة للذهن، والجوهر، وإنهم ليخاطرون بتضييع أنفسهم في اللامحدود وما كان ذلك كذلك إلا لأن واجب الشعر المعاصر أن يكون أسطورة وليس واقعاً تاريخياً. وإنه ليعد بهذا علامة أزمنة، وفعلًا يقظاً. ولهذا، فإنه يضع المذاهب وموضوعات ثمانين عاماً من الشعر الفرنسي في موضعها، أي بدءاً ببودلير وانتهاء بالسرياليين. ولا يوجد فيه ما يستدعي التغيير، ولكنه ليس تاريخاً للغات والأشكال. وسيظهر المستقبل أن ريمون لم يكن لها محقراً. فقد ذهب إلى العاجل أكثر، وقد كان في النظام الفلسفي. وأما دلتى (Dilthey)، فتأتي منه فكرة أن الشعر إنما هو تجربة حيوية، كما تصدر عنه فكرة ظاهراتية الخيال الشعري هذا هو علم نفس الفنان. فعند غوندولف (شكسبير والفكر الألماني) الذي أبان كيف أن المسرح الشكسبييري أخصب قروناً من الأدب الألماني، وجد مارسيل ريمون الحيوية البرغسونية والمعنى الرمزي المجسد، والأمل أيضاً، ولما كان قريباً من ميشليه، فقد تماهى مع وعي الموتى. وإننا لنرى أن ما يشكل قوة مدرسة جنيف هو أنها توجد على منعطف من الفكر الألماني والفرنسي.

فكتاب (من بودلير إلى السرياليين)، منذ التوطئة، يجد أصوله في روسو. وإنه سيكون من الآن فصاعداً واحداً من خطوط البحث عند ريمون. وسيبقى مستمرا إلى أن يتولى (مع برنار غونوبيان) إدارة نشر الأعمال الكاملة لمكتبة بلياد (1959-1969)، أربعة أجزاء. وقد كانت مسبقة بمداخل كبيرة لكل من (الإعترافات، أحلام اليقظة، الأعمال الأدبية، كتابات عن التربية)، كما كانت متبوعة بملاحظات

وتعليقات عظيمة. وقد استمر هذا الخط إلى أن صدر كتاب (جان جاك روسو). وقد كان كتاب (البحث عن الذات وأحلام اليقظة منشورات كورتى، 1962) جامعاً لعدد من الدراسات المنشورة بدءاً من عام 1942. فلقد وجد ريمون أخاً له في روسو: فبين الموضوع المعالج والتحليل، لا يمكن للمرء أن يخطيء في استخلاص نوع من التناغم الجاهز. فثمة نقاد ينتهون إلى مشابهة الكتاب الذين يدرسونهم. وثمة آخرون اختاروا موضوع درسه تبعاً للشبه المبدئي. ومع ذلك، فإن ريمون لا يترك نفسه تذوب فيما يدق الوصف عنه: لقد دأبت على قراءة النصوص عن قرب، مضاعفاً الإستشهادات، ومحاكماً المعجم اللفظي للكاتب، وذلك لكي أصل بوساطة التغييرات إلى نوع من البداية. ولقد استطاع بعضهم أن يعيب عليه أنه قام بالنقد النفسي: ولكن مشروعى كان مختلفاً. إنه طريقة للوجود في الحياة، وللإحساس فيها بالراحة أو الإضطهاد. ولما كنت مهتداً، فقد أرغمت نفسي على الكتابة. وفي الواقع، فإن هذا النقد إنما هو نقد المماثلة. فكلمات الكاتب تسمح للناقد بإعادة تشكيل تجربته المركزية وتطوراتها: فأحلام اليقظة التأملية، والشعر النثري يصبحون أحلام ريمون نفسه وأشعاره. وكما لو أنه كان مسكوناً بأستاذه فإنه يرى العالم بعينه. وإننا لنذكر أن هذا التدريب الروحي لا يسمح بكتابة كتب إلا عن قليل من الكتاب مثل (لاحتجاج كتابة المقالات إلى مثل هذا الغوص في روح الآخر): روسو (1962)، سينانكور (1965)، فينيلون (1967)، جاك ريفيير (1972)، وكل كاتب ينتمي إلى الخط نفسه، ويمارس الطمأنينة الأدبية، ويكون صاحب أسلوب رشيق، وأخذ وموسيقى، إنما يكشف عن ذهن سهل العريكة ومستعد للإندفاع، والانصرار. ولذا يتسم المنهج بطابع جدلي: الناقد ينقد ذاته لكي يستقبل الآخر. وإنه ليكتشف فيه في الوقت نفسه تجربة، ومعرفة، ورؤية للعالم - والكتابة. إن روسو لريمون، إنما هو العالم كما يراه روسو، بينما يكون الكاتب مكتئباً وقابعاً في خطوطه الأساسية. فذرية روسو تمتلك ما يمتلك من رغبة: إنها، من جهة أولى،

الرغبة في تعرية الطبيعة الإنسانية إلى أن يبلغ الألم مبلغه، تماماً كما لو أن الأمر يقتضي أن ينتزع منها سر من الأسرار. وإنها، من جهة أخرى، رغبة الإكتشاف في الحياة، وبداى ذي بدء، في الطفولة أماكن يبدو أنها تحتفظ بظل الجنة الضائعة. ويجب أن نذكر أيضاً بأن السيرة الذاتية لروسو قد ساهمت مباشرة بتحويل مفهوم الأدب نفسه. وصار التركيز، ليس على العمل، بوصفه كائناً أو موضوعاً قائماً بنفسه، ولكن على الكاتب. كما صار التركيز على الكاتب أقل مما هو على الإنسان بكل مأساته الشخصية وصورته التي لا بديل لها (مدخل إلى كتابات السيرة الذاتية Pleiade , P.XV). وفي النتيجة، فإن الانتقال الذي أنزله روسو بمفهوم الأدب سمح للناقد بأن يختاره ويتابعه. ولكن هذه السطور الرائعة تتضمن الإيمان بما هو خارج النص، بالسر، وظل الجنة الضائعة، و المأساة الشخصية، إنه الإيمان بالخارج. وإن نقد ريمون، حتى قبل مرضه، وتبدله، كان متجهاً دائماً نحو البحث عن هذا السر، ونحو هذه الجنة الضائعة؛ ولكن نقداً لا يحمل هذا الأثر المضاعف لهذا البحث، سيكون بارداً ومسطحاً، وفارغاً، وميتاً (وهنا مصدر الملل، وعما قريب النسيان، والعدد غير المحدود من الكتب، وأدوات العمل الوقتية، أو الحاملة للدرجة، والتي تنسحب كما ينسحب عسكري البحر من صدفته)<sup>(\*)</sup>.

إن النشر النقدي النشط والذي من غيره لا يوجد نقد تام، ليظهر كيف يستعمل ريمون النص. وإننا لنرى في مدخله إلى كتاب أحلام اليقظة (منشورات بلياد) كيف توجد، تحت سيولة التعليق، كل أدوات فقه اللغة الروماني. ولقد بدأ كل شيء مع سيرة جان جاك روسو وصورته التي كان يراها معاصروه، وعبر النزهة في حياته. ثم جاءت بعد ذلك دلالة الكلمة العنوان وتاريخها، ابتداءً من مل دي سكويدي أيضاً مع نص مكتوب عام 1300/ حيث يعني تشرد. فالفئات المختلفة لأحلام

---

\* - عسكري البحر: نوع من المحار ينزل في الأصداف الفارغة. (متر).

اليقظة عند روسو تؤدي إلى سيرورة الكتابة: إن حلم اليقظة شكل أدبي يحيل إلى مونتين وإلى بلوتارك. وهنا تأتي قضية التواريخ، وتسلسل الأحداث تاريخياً، والبنية: فالبحت لا يرى خيطاً رابطاً إلا بين الأحلام الأربعة الأولى، وبين الحلم السادس والسابع. وفي هذه الحالة فقط، يبدأ التأويل الحقيقي: إن موضوعات النص الكبرى بخصوص النور (الطبيعة)، والظل (الإنسان)، هي السعادة، والأنا، والزمن. فالنزعة الرابعة تسمح لريمون أن يظهر أي اهتمام يستطيع أن يمنحه للأسلوب، وللأشكال عندما يريد ذلك: فالإيقاعات، والألفاظ، ودور الأفكار تحدد الغبطة. وينتهي التحليل بسؤال: ما هو التأويل الحقيقي لتصوف روسو؟. ها هنا يعطي الناقد الكلمة الأخيرة للشعر: ثمة فعل ديني يتم إنجازه هنا، وإنه ليقع خارج إطار كل الأديان. ولكن روسو يلتقي بالشعر أيضاً في تشرده، الشعر الذي يجعل كل الأسئلة عبثاً، أو على نحو أكثر دقة إنه يجيب، عبر جماله الغامض، على كل تلك التي نكون قد حاولنا تصورها. فإذا كان سر الكاتب المدروس، وهو عنصر متعالٍ من عناصر النص، يظل هو الهدف عبر شبكة من الموضوعات أو الأفكار، فإننا لا نملك إذن أن نقدم مارسيل ريمون كما لو أنه لا يبالى بالأشكال الأدبية والفنية.

وإنه ليدين بالفعل إلى علماء الجمال وإلى مؤرخي الفن الألمان إذ أراح مظهرها آخر من مظاهره فكره ومنهجه (الذي بلغ الأوج في ترجمته للمبادئ، الأساسية لتاريخ الفن، لولفلان Wolfflin، 1952. وإنه لاختيار يساوي في دلالته ترجمة فيكو لأوير باخ) المرتبط باكتشاف فن الباروك (\*). وقد كان ذلك منه رد فعل على الجامعة وعلى المؤرخين الفرنسيين، الذين انتقصوا رونسار Ronsard، ورفضوا أوبينييه Aubigne وفرانسوا دي سال Francois de Sales، وتيوفيل دي فيو Theophile de Viau، وميل دي سكوديري Mlle de Scudery، وتجاهلوا الروحانيين، وأضعفوا كورنيي Corneille. ذلك لأنهم قاسوا بالمسطرة والفرجار مؤلفات مثل مؤلفات بوسان وراسين. ولقد طبق ريمون

---

(\*)- فن ظهر في القرن التاسع عشر. وكان من أهم سماته حرية التصرف بالشكل والزخرفة والحركية (م).

ابتداءً من عام 1936 فئات ولفلان (مع تكيفها). وإن أول ما بدأ به فئة الباروك. وقد طبق ذلك على الكتاب الذين أعاد اكتشافهم (كما سجل ذلك، إذ ما هو مقبول اليوم لم يكن كذلك من قبل). ولقد جمع أهم هذه الأعمال في كتابه باروك ونهضة الشعر (منشورات كورتى، 1955). وإن الكتاب لينفتح على توطئة لفحص الباروك الأدبي الفرنسي. وبعيداً عن التتابع الزمني للكتب، ثمة نظام جمالي للقيم. وتقوم بينها علاقات زمانية، كما تقوم بينها علاقات غير زمانية. فتاريخ الفن الإيطالي قد سمح بإخراج تتابع الباروك إلى الكلاسيكية. بينما نجد في فرنسا أن الباروكيين ليسوا هم أحفاد الكلاسيكيين؛ إنهم يأتون بعد القوطيين في عصر النهضة. فعمر الفن الباروكي الفرنسي يبدأ من منتصف القرن الخامس عشر وينتهي في القرن السابع عشر. وإننا لنجد القوى نفسها عاملة في فنون الأدب. فالمؤرخ يرى الأشكال بوصفها تعبيراً، وعالم الجمال يراها بوصفها إبداعاً. غير أن الموقفين يتكاملان. فالعصر القلق قد استطاع أن يفضل بعض المواضيع، وخاصة الموت. ولكن العمل الباروكي لا يتحدد بمحتواه، ولا بموضوعاته ورموزه؛ ذلك لأن الشكل، في نهاية التحليل، هو الذي يصنع الأسلوب. وهو الذي يعطي للعمل وجوداً جمالياً. وإن أعاد ريمون فحص ما أوجده ولفلان من فئات، أشار إلى تلك التي تبدو بعد نقلتها ممكنة الإستعمال في الدراسة الأدبية. فالأسلوب الخطي، والشكل المغلق نقيض الشكل المفتوح، والوحدة المتعددة في مواجهة الوحدة الإجمالية، كل ذلك يمكن نقله. وخارج هذا، ثمة طريقتان من طرق الرؤية تتعارضان؛ فالكلاسيكي يرى الأشياء متميزة بحسب طريقة ذهنية، بينما لا يكون غير الكلاسيكي متأكداً من هويتها، لأن رؤيته لها غير تمييزية وإجمالية. ويجب أن تضاف إلى هذا فئة الحركة؛ إن اضطرابات الروح تولد الحوادث وانقطاعات الخطاب. فالكاتب الباروكي يتخذ من تصعيد الأصوات، وتكثيفها، وحفظها مجالاً لتعبيره. وانطلاقاً من هذا، يضع ريمون مخططاً لأسلوب الباروك الأدبي. وإنه يجيب على الإعتراضات (مثل: هذه صور كائنة في كل الأزمنة)؛ إن الذي يظهر هو الحوار الكائن بين الأسلوب والمضمون. ولكن بعض الفنانين ليس على مستوى موضوعاته فالرواة الباروكيون

يصلون إلى نوعين من الحالات المتطرفة: القدرة، المغالاة، القطيعة. وثمة الهرب والانمساخ. وإنهما ليتغذيان بالمشاعر المتباينة للحياة والموت، للظهور وللكينونة. وأما السلسلة الأولى، فتزدهر في المناخ المساوي. وأما الثانية، فهي فن الباروك الحقيقي (مونتين، والقرن السابع عشر). ثم إن هذه الفئات تحمل أفكاراً، فما أن يتم هضم هذه حتى يستطيع المرء أن يتخلى عن تلك. وهذا هو ملخص الباروك كما جاء في هذه الدراسة. وإنها لتطيل أطروحة جان روسيه. فهذا الكتاب يتم، لحسن الحظ عمل ريمون؛ فلا شيء يقلت منه، لا الموضوعات، ولا الأشكال. ولقد كان التعليق النفسي يستهويه أكثر في بعض الفترات (وبحسب الكتاب)، أو التعليق الأدبي، أو الفلسفي (فلقد جعل من فاليري وجودياً). وكان يجد راحته بين القرن السادس عشر والقرن العشرين. وإنه لأوربي ثقافة ومنهجاً (ولكنه لم يعالج سوى موضوعات فرنسية). ومع ذلك فهو لم يجد حدوداً له إلا في تأويلاته العميقة. ولما كان محمولاً بعيداً عن سطح لغة الكتاب المدرسين، فإن أسلوبه البليغ، والرخيم، والرائق قد أعطاهم جسداً.

## Albert Biguin

### 2 ألبير بيغان

تشبه بداية ألبير بيغان بدايات صديقه مارسيل ريمون. وله كتاب يسير فيه منطقة من تاريخ الشعر، والفكر، والأدب قل العلم بها: «الروح الرومانطيقية والحلم» وقد كان في البداية أطروحة بعنوان: الحلم عند الرومانطيقيين الألمان وفي الشعر الفرنسي المعاصر). وقد نشر في عام 1937 (وأعيد نشره عند كورتي 1939). لم يكن بيغان بكل تأكيد هو من اكتشف الرومانطيقيين الألمان في القرن العشرين. إذ ثمة كتاب (جيرودو، بروتون) ونقاد (جالو، دي بوس) كانوا قد سبقوه إلى ذلك. ولكن أي واحد لم يعط طرحاً شمولياً، ولم يحول وجهة تأويل الرومانطيقيين الفرنسيين: فلقد رأى كل قراء بيغان أن نيرفال كان أكثر أهمية من لامارتين، وأن هيجو قد اختصر في أبيات رؤاه. ومع ذلك، فإن مؤلفه لا يقف عند حدود أطروحته للدكتوراه: فثمة ترجمات لكل من جان بول، وهوفمان، وتييك، وأرنام، وغوته قد سبقتها أو أتمتها. ثم هناك دراسات عن بيغي (Peguy) (1924 و 1955)، وعن بالزاك، وعن نيرفال (1945)، وعن بلوا (Bley) (1955) وعن راميز وثلاثة مئة مقالاً. وهي تعطي فكرة عن نشاط الرجل، والذي كان بالإضافة إلى ذلك أستاذاً في جامعة بال (1937-1946). كما كان صحفياً ومديراً لمجلة (Esprit) بعد وفاة مونييه (1950-1957). وتعد مقالات بيغان في هذه المحطة الأخيرة، في جزء منها، من النشاط العلمي (أما أفضلها، فقد نشر بعد موته في كتبه التالية: شعر الحضور، إبداع وقدر، واقع الحلم، منشورات Seuil وكذلك عند (Baconnier). وأما الجزء الآخر، فهو ينتمي إلى النقد ممثلاً في أحداث الساعة والصحافة (وذلك بعد أساتذته Bernanos, Peguy).



تعيّن القضايا والمؤلفون الذين درسهم بيغان مراحل خط سير الرحلة: هروب خارج العالم (ويتمثل في ترجماته، وفي كتابه الأول)، وعودة إلى العالم. ثم بحث عن المطلق يسم أعماله التي أنشأها عن ريمون، وعن الشعراء الذي يتكلمون. وإنه ليمتيز من مهنة العلماء الآخرين التابعين لمدرسة جنيف، وذلك لأن بيغان هو الوحيد الذي غادر الجامعة لكي ينخرط في المعركة اليومية، الأدبية بكل تأكيد، ولكن السياسة أيضاً. وإن العبور من الرومانطيين الألمان إلى بيغي وبرنانوس هو السمة القائمة في المواضيع المدروسة. فالنقد عند بيغي إنما هو أدب أكثر من كونه علماً. وذلك لأن العوالم الموصوفة، والرؤى المتطابقة، والوعي المفتش عنه تجيب على تساؤلات الدارس. وإن مدخل روح الرومانطيين ليظهر هذا. فهو، كما لو أنه نص من نصوص أندريه بريتون، يبدأ بفيض من الأسئلة وجودة في الأسلوب: إنه أدب، أكثر من أي شيء آخر قد اكتشف عالم الحلم. وكان ذلك لكي يجد تجربتنا، تجربة الشعراء وتجربة بيغان الذي كرّس نفسه لدراسته. فتجربة الشعراء الذين نتبناهم تتماثل مع جوهرنا الشخصي، وذلك لكي تساعد في مواجهته مع السأم العميق، وإننا لا نرى منذ البداية أن التاريخ الأدبي وحتى الموضوعية، وقانون العلوم الوصفية قد تم فصلها. فأمانة المعلومات إنما هي الشرط البسيط المسبق بحث نحب فيه أن نشعر بحضور التساؤل الشخصي والمحتوم، وأن بيغان لن يتغير فيما يخص هذا المبدأ الفلسفي للفن: فالعمل يهم، الجزء الأكثر سرية فينا. وفي مواجهة مع الشعر الفرنسي والشعر الألماني نجد أن كتابه الروح الرومانطية، ليس إذن سوى كتاب من كتب الأدب المقارن والذي عالج انتقال الأفكار والموضوعات: قمغامرة روحية مشتركة بين البلدين، وأخوة طبيعية، ومعرفة توحى بسمات مشتركة. فالفهرسة الألمانية خيبت بيغان: إن أطروحة التركيب المهيمنة التي تحد

الذهنية الرومانطيقية من «غير تحفظ» لتتجاوز كل المحاولات. وإن هذا بالأحرى هو ما يقترحه بطريقته الخاصة. فالرومنطيقون يفرضون مناهج في البحث: يجب على المرء أن يتكلم عنهم كما لو أنهم كانوا قد تكلموا عن العالم. فحواجز أعمالهم كانوا قد اختاروها بما يتناسب مع أنفعال شخصي ثم وضعوها ضمن مجموع واحد ومنفتح في الوقت نفسه (إنن ليس هندسياً تماماً ولا استدلالياً بشكل مطلق). ولقد كان بناؤه موسيقياً، إنه «وحدة مصنوعة من الصدى، ومن الإستدعاء ومن تقاطع الموضوعات». وتهدف هذه «الوحدة المفتوحة» (كما قيل قبل إيكو) إلى «الإحياء بالنقص الملازم لكل فعل من أفعال المعرفة الإنسانية، كما توحى بإمكانية الزيادة، والتقدم». وهكذا فقد اختار بيغان مؤلفيه وجمعهم في جمع متتابع ومفتوح، فثمة بيئة كبيرة تجمع بنى التفاصيل وتكوّن عالم كل كاتب، وكتابه، وقدره: «وهكذا، يتشكل، من وجوه كثيرة يختلف بعضها عن بعض، الوجه الوحيد لعصر كان من أكثر العصور طموحاً، ومن أكثرها جسارة في مواجهة اللغز الذي عرفته الإنسانية». فكل كاتب يعيش «مأساة فريدة» ولكنهم ينتمون إلى «عائلة روحية» وإذا كنا قد ألقينا (ستاروبنسكي) على مفهوم العلم واللاشعور في كتاب الروح الرومنطيقية، فيجب على المرء أن يكون حساساً أيضاً إزاء الطريقة التجديدية التي تكوّن بها الكتاب. فالقصد إنما هو مجموع متزامن (يتراوح من 1750 إلى 1820 فيما يخص ألمانيا، ومن سيناكور إلى بروسست فيما يخص فرنسا، ولكن من غير اعتبارات حتمية تتصل بسلسلة تاريخ الأحداث) يعالج مفكرين كما يعالج كتاباً من البلدين، فينتظم في إطار عمل ثلاثي: ففي المركز حيث «السماء الرومنطيقية»، نجد الكتاب رقم (4) يمثل صور عظماء الرومنطيقين الألمان Hoelderlin, Hoffmann, Brentano, Arnim, Tieck, Novalis, Jean, Paul, Heine, Kleist, Eichenderff). أما الكتب الثلاثة الأولى (القسم الأول: الحلم

والطبيعة) فتقيم السمات الايديولوجية الكبرى للرومنطيقية. وهكذا هو الأمر في الكتاب الثالث «سبر أغوار الليل»، حيث يرى المرء «ميتافيزيقا اللحم» (Troxler)، و«رمزية اللحم» (sehubert)، و«أسطورة اللاشعور» (carus). وأما الكتاب رقم (5) فهو مخصص لفرنسا (Ner-Val, Proust, Guerin, Nodier, senancour, Poesie, dapes-guerre, Mallarmet, Rimbaud, Baudelaire, Hugo, Symbolismeet). والخلاصة هي أنّ «الروح واللحم» إنما يعود إلى اللحم» الذي ليس هو الشعر، ولكنه واحد من ينابيعه: فعبور اللحم يقود إلى الوجود. وإن كل واحد من هذه الكتب قد أحيط بتأمل شخصي، كما لو أنّه سيرة ذاتية، والتزام من الكاتب يقف به إلى جانب الكتاب الذين يدرسهم، والذي يتجاوز الإنطباعية: «انني استدعي وجوهاً اعتيادية، إنها وجوه ترافقني منذ سنوات، ولقد اتخذت بالنسبة إليّ كثيراً من التحديد الواقعي وذلك كلما حاولت جاهداً أن أخترق سر هذه الحيات مستعيناً بالأعمال وبالإعترافات المركونة». ولقد يتجاوز النقد الأدبي نفسه بالتجربة المشتركة مع الكتاب. وإن هذا الأمر يعيد الكتاب إنتاجه، ويكثفه، ويحاكي تأثيره مع القراء الذي يلامسهم بأسلوبه.

يبحث بيغان إذن في كل عمل فني «عن شهادة على قدر البشر». غير أن هذا لا يعني أنه يوافق على النقد الذاتي، بالطريقة التي قام بها هنري غيومان: إن ما يميز الكاتب من «نظرائه لا يمكن في غرامياته، ولا في ذنوبه أو في نجاحاته، ولكنه يكمن في القدرة التي كان يمتلكها في استخلاص حقائق ذات بعد كوني» (1943). فمن التقليد التاريخي والوضعي «اعتبار الحياة أكثر واقعية من الفكر والشعر». ذلك لأن مولد عمل من الأعمال يشترط «عطاء الذات» كما يشترط «حذف المصادقات». وإن العمل من منظور وضعي ليعد اكتشافاً ينتمي إلى «مخطط علوي للشعر». وأما التنقيب المعرفي، فخبغان عليه قادر. ولقد تبرهن على ذلك منشوراته عن

«Peguy»، وعن «Bernanos» (Monsieur ouine). ولكن تنقيبه يجد هنا أيضا حدوده: فبيغان إذ يعلق في عام 1948 ويمتدح أعمال «لافيما Lafuma» التي كتبها عن باسكال، يعترض عليه بخصوص (سر المسيح- *Mystere de Jesus*)، الذي ينظر إليه (لافيما) بأنه خارج عن التقريظ: «إن ناشراً آخر، شريطة أن يعترف باستحواذه على الحرية، سيكون محقاً في تفضيل اقتراح التماسك الروحي على مقتضيات علم قراءة النصوص القديمة». ذلك لأن للعلم حدوداً، والسبب لأن «الشروط الموضوعية، والقياسات المرقمة للتحليل النسقي» التي يتضمنها العلم إنما هي شروط بعيدة جداً عن المسار الطبيعي للفنون، وخاصة فنون اللغة» (حول غولدمان. 1956). وهكذا، فإن الوقوف على الأعمال بوصفها وثائق عصر من العصور، ليعد «تشويهاً لها». ولا يختلف الحال عن النظر إليها بوصفها «عوارض نفسية»: إذا كان الفنان مريضاً وبني عملاً، فإن هذه الواقعة نفسها «تناقض التشخيصات المعتادة، وتضمن [...] صحة لا يستطيع المحللون النفسيون أن يكونوا حكماً عليها». ويكتب بيجان كذلك أيضاً في «حاشية على النقد الأدبي» عام 1955 (*destinee . creation et* - الإبداع والقدس ص 179-183): إن إقامة رابطة بين العمل وبعده الاجتماعي والسياسي، يعني إخضاعه إلى «قانون ينكره أو يقلل من قيمته». بينما يستفيد الجهد السياسي، على العكس من ذلك، من «إبداع مستقل تماماً». وهذا الكلام عندما يأتي من رجل ملتزم مثل سارتر أو أكثر، فإن له ثمنه: «إن الأدب لا يصبح اجتماعياً إلا بوساطة فعله غير المتوقع، ذلك الفعل الانفجاري، والمتحرر من كل قصد غريب». وأخيراً، فإن ترجمة العمل إلى عقيدة، وإلى «رسالة»، وإلى فكرة، ليسلبه أشكاله. وإن ما يرحب به بيجان في بداية «النقد الجديد» عند باشلار، وبارت (Michelet)، وبوليه، وريشارد، هو «البدئية نفسها»: «إن العمل هو المعطى، وإن الواقع لمقبول بنفسه، والمقصود أن يفهم كما هو، وليس بوصفه عرضاً لشيء آخر يكون القبض أكثر

أهمية. ثم اختيار الكلمات، وحركة الجملة، ولعبة المشاهد أو الصور، وما يقولوه معاً، أو ما لا يقوله أي تركيب خيالي آخر: إن هذا هو الموضوع المقترح على الذكاء». ولم يكن ببيغان ليتوقع مع ذلك أن هذا النقد سيصل إلى رفض المؤلف بوصفه ذاتاً. فالأمر بالنسبة إليه «أنه ما من شيء يعود إلى وحدة كائن مفرد مثل كلام الشاعر. وإن الكلام الذي هو أيضاً، وبشكل تام، التماس للمشاركة، إنما هو نداء للآخر».

لا يضيع إذن البير بيغان في علم الآخرين، ولا في نعيم التداخل الذاتي. فلقد بدا دائماً، عند باسكال وبرنانوس، مهتماً بتحليل الأسلوب والتركيب. وإذا كان قد تطور، فإن تطوره قد اتجه نحو تقنية أكثر: «فالتعليق على الشعر، إنما هو تحديد للوسائل اللفظية، أي للغة الشعر».

[...] وإن التعليق على الرواية إنما يجب أن يكون أيضاً بالنظر إلى كيف صنعت هذه الرواية، وكيف يمكن العبور من الإحساس الداخلي إلى وجود الشخصيات والمشاهد، وإلى الإبداع بذاته، وجذب الانتباه دائماً إلى الأشكال الجمالية» (1948). إنه درس تم حفظه عند دي بوس. فقد كان يستعمل كلمة النص باستمرار (صارت هذه الكلمة دُرْجَة عام 1970) من غير أن يفرق فيها التجربة الروحية عن المظهر الواقعي (شـسارل دي بوس والنصوص، 1941. الإبداع والقدرة، ص217-221). وقد كان بيغان يعرف طريقة عمل النقد المعاصر: «إنه كلما ابتعد عن ادعائه القديم في تصنيف القيم، وعن أوصافه الأمرية، صار أكثر شبهاً باستقصاء عن جوهر الأدب والنقد نفسه». وكان بيغان قد سجل هذا عام 1945 بخصوص «ما هو الأدب؟» (لدى بوس). وأما عن باشلار فقد كتب بيغان أن مصنفاً من الإستعارات والصور المفضلة عند شاعر من الشعراء وأن مجموعة من الكلمات المختارة، كل ذلك يكون «أكثر بياناً من إنشائيات طموحة». وإن بيغان ليظهر، على

العكس من صديقه مارسيل ريمون، حذراً أكبر إزاء الأصناف الأدبية، والأساليب، والمناطق الجغرافية. «إن تثبيت حياة الفكر في أصناف ثابتة، لم يعد أمراً مفيداً بالنسبة إلى عقل هذه الحياة». فالأسماء ليست سوى «فرضيات عمل»، «تظل مضيئة إلى زمن محدد، وإلى لحظة يبدأ فيها تجريدها بصنع دريئة أمام التعددية غير المتناهية للأعمال الواقعية»: فاستعمال مفهوم الباروك، ليس له من فائدة سوى أنه يجعلنا نقرأ شعراء لم تظهر شهرتهم. وإن جاك روسيه في (الأدب في عصر الباروك في فرنسا) لم ينج من هذه الإنتقادات إلا أنه لبث قائماً «على المخطط الشعري البحت للصور»، وليس بين الأصناف الذهنية: ولقد نجد «الحماس» و«التلذذ». وبهذه الشروط، يمنحنا الباروك حقيقة الشعر: فالشاعر واقع بين الشكل المنتهي اصطناعياً، والشكل المحطم «لصالح شبه دقيق مع الواقع «المفتوح» لحياة خارجية وداخلية».

تؤسس هذه النظرات تحليلات للأسلوب، كانت موضوع دراسات أحادية كرّسها بيغان عن بيغي (Peguy)، وباسكال وبرنانوس. غير أنه حتى في المحادثات الأكثر حماساً، مثل محادثات كارتينييه (cartigny)، ليس ثمة من خصها بالأهمية. فابتداء من افتتاحية «باسكال يكتب عن نفسه» (منشورات سوى - 1952)، «عبقري فتي»، يعزو الناقد إيقاع الفكر الباسكالي، تضاد وتجاوز، إلى «أسلوب مفاجيء في الكتابة، فتي، كل ما فيه انقطاعات». ففوة الإيجاز في الشكل، والعدوانية، والفظاظة، والكلمة المتفجرة بلا تمهيد ولا تريث، وكثرة كثيرة من سمات باسكال الكاتب، «تدل على باسكال الداخلي». ذلك لأن «تناقض الواقع» يشرح الأطروحة المضادة أكثر مما تشرحها به البلاغة المعاصرة. فعن حرف العطف الصغير «و»، يعطي بيغان تحليلاً سببياً. ويرى أنه مثل التجاور، و«مفصل التناقض». ثم إن بيغان بخصوص الأسلوب أيضاً يرد على «جيد» و«فاليري»: نعم، إن باسكال يزن كلماته. ولكن الذعر الذي يحاكي نبره إنما جعلَ لاستعمال

الآخرين. نعم، إنها الإستغاثة كما «كتب جيداً»، ولكنها استغاثة يريد التمجيد أن يوحي بها، وليس التعبير الرومانطقي للكاتب. وفي الوقت نفسه، فإن تأويل التفاصيل إنما يتم تذكره دائماً من المجموع؛ ولا يفهم مثل هذا التمييز الباسكالي إلا إذا «وضعناه ضمن السياق العام للتمجيد». فهو يتطابق مع الكاتب لأنه يدرسه في إطار حركة التركيب نفسها، وفي انتشار المعنى عبر الأشكال. ويجد، أخيراً، هذا النقد التطابقي حدوده وذلك تبعاً لمسيرة تصعد إلى «الروح الرومانطيقية»: فالمخلص يعين دائماً أين يجب الوقوف، وأين يجب، على العكس من ذلك، الذهاب إلى أبعد من هذا، وتحديد التجربة: فبعد الحلم يأتي النزول نحو الواقع. وبعد باسكال، يتم الحصول على معنى الجماعة الاجتماعية والتاريخ. وكذلك، فإنه بعد برنانوس... ولكن لم يكن هناك ما بعد برنانوس. ولعلنا نكون قد لاحظنا أن بيجان من بعد الرومانطيقين. بلزك مستثنى، ولكن، بلزك «صاحب الرؤى» قد كرس نفسه لكتاب مسيحيين، كانوا شهوداً على معركته (وقد جسدت هذا الاتجاه أيضاً إدارة مجلة Esprit). وقد كان هذا لأن الناقد قد التزم بالكتاب الذين اختار أن يتكلم عنهم، والذين دُعي بهم. وكان بيجان يفهم بيرنانوس جيداً إلى درجة أن أي تحفظ لم يعد يفرق بينهما: واستطاع، قبل موته بزمان قصير، أن يشهد بأن الأدب تجربة المطلق. وربما كانت هذه للمرة الأخيرة في عصرنا. ثم بدأ بالظهور كتاب مع نقادهم، وكان الكتاب بالنسبة إليهم لا يقول شيئاً آخر سوى أنفسهم، كما كان الله والإنسان ذاته بالنسبة إليهم قد ماتا. وفي مواجهة هؤلاء، رفع بيجان روايات برنانوس. ولم تكن هذه «رواية راهب بقدر ما كانت تاريخ قرية مع راهبها، وكانت هذه القرية صورة مختصرة، ولكنها كاملة، للعالم الذي كان مسيحياً فيما مضى». (برنانوس يكتب عن نفسه. منشورات سوى، 1954، ص 69). وإن لكل رؤية لغتها. وبيجان بوصفه ناشراً، قد تتبّع ما شطبه برنانوس (قثمة سطور ثلاثة أو أربعة في

كل صفحة، هي نفسها إنتاج عدد من الساعات): «يحدث ظهور الكلمات والصور عند برنانوس، كما هي الحال عند الشعراء، عن طريق البحث المتأني لحركة متوقعة أولاً، ثم تسمى رويداً رويداً الأعماق، وتحفظ الكلمات بها». هنا يصبح الناقد شاعراً. وعمله مدعولكي يقاوم النزعات العلمية التي تتجاهله والتي حار بها كثيراً. ذلك لأن العمل تحت مظلة الظاهر إنما يستدعي الجوهر.



## Georges Peulet

(ولد عام 1902)

جورج  
بوليه

3

إن جورج بوليه من أصل بلجيكي. عمل مدرساً في جامعة إدا مبورغ ثم في جامعة بالتمور (1952 جامعة هوبكانس)، وفي زيوريخ (1956)، وأخيراً في نيس (1968). ولقد قام بالنشر متأخراً. ولكنه نشر بعد ذلك بشكل متكرر أعمالاً رئيسية، عدت زماً طويلاً ينبوعاً «للنقد الجديد»، أي أنها كانت في إطار تجديد النقد الذي ظهر في فرنسا بعد عام 1956 (والذي تعود أصوله إلى زمن أقدم). ويتسم هذا النقد، بغض النظر عن المناهج، بالقطيعة مع التاريخ، ومع الوضعية، ومع السيرة، ومع الدراسة الأحادية المكرسة «للرجل والمؤلف». وإذا عدنا إلى فهرسه (1)، فسنجد أنه يتضمن ثمانية عشر مؤلفاً، وذلك بدءاً من «دراسات عن الزمن الإنساني» (1949) إلى «الشعر المتشظي» (1980). وثمة عدد كبير من المقالات، بالإضافة إلى رواية «الدجاجة ذات البيض الذهبي» (1927). وإن لوحة المؤلفين المدروسين (المعزوة إلى بيير غروتين، المختص الجلود المنتمي إلى مدرسة جنيف (2) لتظهر أهمية تماثل في اتساعها أهمية سان بوف: القرن السادس عشر (تضيتان ومؤلفان)، القرن السابع عشر (ثمانية من المؤلفين) القرن الثامن عشر عشرة من المؤلفين أو الفنانين، ولكن لا يوجد مونتيسكيو ولا فولتير)، القرن التاسع عشر (عشرون مؤلفاً فرنسياً أو أمريكياً)، القرن العشرون (خمس وعشرون مؤلفاً فرنسياً، وألمانياً، وسويسرياً، وأمريكياً، وإيطالياً، وإسبانياً، وبلجيكيّاً. وخمسة

عشر ناقداً فرنسياً أو سويسرياً). وعندما ظهر كتاب «دراسات عن الزمن الإنساني» في باريس، وهو الكتاب الأول لمؤلفه، فإن النقاد (روسو، نادو، بيجان) قد رحّبوا به بوصفه حدثاً كامل الجدة: فلقد رأى فيه بعضهم، وهم الأكثر حساسية إزاء قضية الزمن في الأدب، معالجة غير مسبوقة. كما رأى فيه بعضهم الآخر، معالجة فلسفية ووجودية. أما هو نفسه، فقد حدد، في رسالة كتبها عام 1955 إلى ريمون، أصل تفكيره: «قبل اكتشاف دلتا وغوندولف نحو عام 1932، وكذلك إذا وضع على حدة ريفيير الذي قابلته مرتين، والذي ترك فيّ بقلقه الموسوس أثراً لا يمحي، فإنني ما كنت لأعد غير دي بوس بوصفه بسيطاً [...]». وكذلك من غير معرفة تقريباً باللغة الألمانية، وبحث جهيد، وبسوء فهم تم تجاوزه بمشقة، فقد استطعت أن أطلع بطريقة ما على مكنون ميتافيزيقا الشعر وشعر الميتافيزيقا، والذي يشكل [...] شاهداً روحياً مشتركاً». ويؤكد النقد عند جورج بوليه منذ المقدمة، موقفه من البعد الداخلي (1952)، المجلد الثاني من «دراسات عن الزمن الإنساني»: «إن الأدب صنع موضوعياً من مؤلفات شكلية. وإن حدودها لتبرز بوضوح كبير إلى حد ما. إنها قصائده وأمثلة سائرة، وماذا أقول أيضاً، إنها روايات، ومسرحيات. وأما ذاتياً، فليس للأدب شيء شكلي. ذلك لأنه واقع لفكرة خاصة على الدوام، وتآل على أي مادة. وإنه من خلال أي مادة، ليكشف من غير توقف عن الإستحالة الغريبة والطبيعية حيث يكون، وعن أنه لم يمتلك أبداً وجوداً موضوعياً». وأما عن واقعية الفكرة، فهذا ما يقوم بوليه بتقديره في كل كاتب من الكتاب: «إنها هذا الفراغ الذي يتهيأ العالم فيه». إنه ناقد من نقاد تيار الوعي، ولكن على العكس من ريمون (المهتم بالأشكال والأعمال الخاصة)، وكذلك على العكس من بيجان (صديق الحضور والتجسيد)، ويعيداً عن الكتب، فإن بوليه يحدد، ليس الكتاب المفرد، وإنما روح المحاضرة التي تعطي الكتب ولادتها. فالأشكال يجب ألا تكون بديلة عن الروح، وإلا يكتن ذلك، فإن الأمر سيكون تيمية

(عبادة الأشياء المسحورة. «متر»). ففي العمل الفني يكون البحث عن «الروح الخلاقة لعالمه، وعن مبدأ المثولية لتنفيذه. وفي هذه الحالة من جهة أخرى، لا تكون بنية العمل وزمانه ومكانه سوى متغير من متغيرات الروح التي تحتويه، وتستحوذ عليه، وتتجاوزها». وإن المراسلات بين ريمون وبوليه لتشهد على هذه المناقشة: فهذا الأخير يحض «المواد الفنية» حقداً حقيقياً، فوصف عمل من الأعمال الفنية، وتفصيل التقنية المستخدمة فيه، والطرق، يبدو له رجساً، وذلك لأن العمل ليس شيئاً من الأشياء. وهكذا، فإن «بلازك» بوليه (البعد الداخلي) يُظهر، بعيداً عن «البنى» و«الترسيمات»، الفكر الذي يولدها، وهو سبب النتائج. ففي «الكوميديا الإنسانية» يتجه الكل نحو مبدعه. فهو وحده الأهم. وإن هذا الفكر ليس «نسقاً للأفكار»، فالأفعال «أحس، وتخيل، ورغب، وأحب، وأراد، إنما هي «فكر»، و«فكر»، هو فعل الحياة الروحية نفسها. وعند تحمل الأشكال حداً مادياً، يجب أن نجد ثانية الفكر الذي ينفخ فيها الحياة ويتجاوزها. وهكذا هي أعمال شكسبير. إذا سبرناها عملاً فِعْلاً، فإنها لن تظهر سوى أسلوبها، «والحقيقة النفسية للشخصيات، وكذا التقدير النسبي للهجاء والبيت الشعري الأبيض» ولكنها لن تظهر «الحقيقة الشكسبيرية» (مراسلات، ص 62-63). إلا وإن للشاعر مهمة إذن، إنها ليست في «صنع قصيدة»، ولكنها في أن «يكون ويجعلنا نكون». إذ ليس المقصود هو أن يروي تجربته الرديئة، ولكن أن يظهر قمة الحياة العقلية، أي «الكون الفكري». وثمة صيغة تدفع موقف بوليه إلى حده الأقصى، هي: «صنعت الأشكال لكي تُمصّ، فإذا عصرنا عصيرها، يجب أن نرمي القشرة».

والنتيجة، والمنهج بالنسبة إلى كل كاتب، وإلى بعض العصور (القرن الثامن عشر «الرومانطيقية») إنما يكون في تقديم لوحة، ليست إنسانية، وليست إنسانية جداً على طريقة «اللوحات الأدبية» لسانت بوف، ولكنها لوحة روحانية: فثمة

كوجيتو (ادرك، أفكر «متر») لكل كاتب، وفكرة تبرهن على وجوده بوصفه كاتباً، وإن نقطة الإنطلاق هذه هي الأمر الذي يجب العثور عليه. فكل دراسة هي إذن بحث عن سر ما وأصل ما، ولحظة أولى سابقة على «لحظة ثانية» للإلهام اللفظي. وإذا كان نقد بوليه، وخاصة في بداياته، قد ظهر فلسفياً بقدر ما ظهر أدبياً، فذلك لأن الإلهام أو «الحدس البدئي» للفلاسفة لا يبدو له مختلفاً عن حدس الشعراء. وانطلاقاً من هذه النقطة، فإن خط سير بعضهم سيفترق عن خط سير بعضهم الآخر. ومع ذلك يجب أن نفهم في الوقت نفسه، أن هذا الوعي الأولي ليس هو الوعي الكوني وغير الشخصي لفاليري: «إن حصول الوعي، بالنسبة إلي، إنما يكون على العكس من ذلك، إنه الفعل الأكثر ذاتية من كل الأفعال. إن الوعي، ولنقل عند راسين أو هيجو، أو عند كلوديل، بوصفه فعلاً عاماً، لا يتسجم مع كل أفعال الوعي الأخرى التي تنجزها الكائنات الأخرى. ولكنها توجد دائماً بشكل ضمني أو غير ضمني في أي تجربة من تجارب الوعي، موضوع حديثنا» (المراسلات، ص 199). ويريد جورج بوليه أن يصل إلى وعي كل واحد من هؤلاء المؤلفين «بوصف الوعي حداً لفكره الخاص»، وله، أي الناقد أو بصورة أفضل، أن يفكر بتفكير الآخر كأنه تفكيره بالذات. وبهذا تكون القراءة فعلاً استحوادياً: «لقد أعرت نفسي إلى شخص آخر، وهذا الشخص الآخر يفكر، ويشعر، ويتألم، ويتصرف في داخلي بالذات» (الوعي النقدي، ص 282).

ماهي الحال التي يكون العمل عليها والكتب؟ هذا ما سيدور عليه النقاش مع مارسيل ريمون في مراسلاتهما الجميلة. ويبدو أن بوليه في صفحة من صفحات كتابه «الوعي النقدي» (284 - 285)، يعلن ميله إلى العمل. ويرى أن ثمة كمية من المعارف غير المتناهية ضرورية لفهمه، ومع ذلك فإنها تختلف عن «المعارف الداخلية» الحقيقية. فهناك لحظة آتية، يجب أن أعيش فيها من الداخل «بعض ما

عندي من علاقة تماثلية مع العمل». فهو فيّ كما «الأنثى - الموضوع والوعي يتابع بما هو يكونه، ويتجلى في داخل العمل»، ويتشكل «بوصفه ذاتاً لمواده». وأما القارئ، فإنه بالتأكيد لا يختفي، ولكنه يتقاسم وعيه من الذات في داخل العمل. وهو وعي «مندهش» مما يحصل له، ويكون هو الوعي النقدي الخالص. ثمة إذن مستويات عديدة للتماثل، يجعل بوليه الناقد لها مثلاً. فما أن «أعدّ رسم» التماثل حتى كان هذا المثل جاك ريفيير (ولقد عاب عليه مارسيل ريمون، الذي وضع كتاباً عن ريفيير، هذا الحكم القاسي). ثم هناك التماثل الموضوعي، والحسي، ولكن ليس العقلاني ولا القصدي لجان بيير ريشار. ويوجد في أقصى الطرف الآخر، و«ضمن إلغاء أي مادة من المواد»، تطابق مع «وعي منفصل عن أي مادة». وإنه ليعلو على النقد، ويعمل في الفراغ، يمثله: مورييس بلانشو. وهو رسول من رسل «العقلانية من غير اتحاد». وإذا كان ذلك كذلك، أفلا يمكن للمرء أن يؤلف بين هذه الشكليات المتعارضين؟ فثمة قراءة للأجساد تتحد مع قراءة للأرواح عند ستاروبانسكي، ولكنها لاتزال واضحة جداً، وعقلانية جداً. وإن مارسيل ريمون لمزق بين التأمل والفهم. وأما تلميذه روسيه، فيذهب من الغموض إلى الذاتية، ومن الأشكال إلى ما يتجاوزها. وفي نهاية هذا التاريخ، أو في نهاية «فينو مينولوجيا» الوعي النقدي، يقص جورج بوليه أثر ما يبدو له أنه الطريق الحقيقي: «الذهاب من موضوع إلى موضوع عبر المواد. وإنها لمراحل ثلاث» لكل مسيرة تأويلية». ويوجد في كل عمل أدبي ثلاثة مستويات: إن وعي الكاتب يستخلص لنفسه بعض المواد. وفي ثاني المستويات، يتجاوز الوعي هذه المواد لكي «يتماسك هو نفسه». وتوجد، أخيراً، نقطة الوعي «لا يعكس فيها أي شيء. فهو يكون في العمل وفوقه، غير أنه» يكتفي بأن يوجد». ويرتقي النقد الذي يتابع هذا المعراج «إلى القبض مباشرة على ذاتية من غير مواد».

يجب إعطاء بعض الأمثلة عن هذا المنهج. فحين درس جورج بوليه «لاكولوس» البعد الداخلي)، اقترح أن «يعيد رسم المسافة التي يتبعها التفكير، فيدرك نفسه فيها، فيمتحنها، فيطورها، فيكملها». ويبدأ هذا التفكير بفكرة «خارج الزمن، ولكنها تقف إزاءه». وهذا يعني أنه مشروع. ولذا، فقد رأي بوليه أن فالون يُعد نموذجاً للإدارة السرية للزمن والتفكير الإرادي. ومن هنا، كانت الرواية تكتب كما لو أنها تحقيق وتجربة، وذلك لكي يتم التحري عن صواب حساب ما. وهكذا، يُظهر الوعي، من فوق الزمن، «نفسه لنفسه أنه العناية الربانية الخاصة بنفسه». وتكون، على هذا، شخصية السيدة ميرتوي «وعياً سابقاً» يقاضي فالون. فمخطط شخصية الغاوي إنما يقضي بالرغبة في «فرض وجود زمني جديد على كائن من الكائنات»، وفرض قدر يكون هو سيده. ولكن يختلف كل شيء عندما تندس، في رواية الإستحواذ، رواية أخرى غير منتظرة، «إنها رواية الإستحواذ غير المقصود الذي تمارسه الضحية على شخصية الغاوي». فإذا أضحي فالون عاشقاً، وصار مشروعه منسياً، فإن دوام هذا الأمر يكون خاضعاً للمصادفة. وإن فالون لن يعود ما كانه أبداً. ذلك لأن وجوده قد خرج عن طوع الإرادة، ودخل في ربح زمني غير محسوب: «فالإنسان الذي يخطط للسيطرة على الزمن، يسيطر الزمن عليه». وهذا تحليل شرس وبسيط لرواية كنا نعتقد أنها متعددة الأصوات. فإذا بها تختزل إلى مأساة للوعي ضمن الزمن.

إن الرسام ليكون مختلفاً في كل لوحة من لوحاته. فلنتأمل صنيع بوليه بموليير (دراسات عن الزمن الإنساني). إنه يبتدأ بتعريف «اللحظة الهزلية»: إنها لحظة تكون الذات فيها «موضوعاً» بدلاً من أن تكون «ذاتاً مجردة» ووعياً بالانفصال. والمشاهد، في لحظة، يلتقط سلوك هذا الموضوع بوصفه كاشفاً عن كائنه ومتميزاً من الجمهور. ومن هنا ينشأ الحكم الذي يحيل إلى الخالد. ولكن الضحك يقطع

الديمومة كما يقطع الموضوع. أما فيما يخصنا، فنحن نشارك في ديمومة النظام. وبهذا يتموضع الموضوع الهزلي في اللحظة المنقطعة للفوضى: «إن الهزل هو إذن إدراك حسي لانكسار زائل وموضعي في وسط عالم دائم وطبيعي». ولقد نحكم أو نشعر في الديمومة وفي لحظة الهزل ضد الموضوع، وضد الشخصية الهزلية. وإذا كان الحال كذلك، فما يمكن للمرء أن يفعل لكي يجعل لحظة الهزل تدوم؟ إننا نجد عند موليير، في وقت واحد، عالم التقاليد ثابتاً ودائماً، وعالم الإنفعالات عابراً، وتشنجياً، وانفجارياً، تماماً مثل ديمومة مأساوية وتكرارية في الوقت نفسه: فالشخصية تتخلع تحت أنظارنا من إنسانيتها شيئاً فشيئاً. وإنها لتصبح نموذجية [...] وكذلك، فإنه كلما تقدمت المسرحية، فإن الشخصية تعمم. وهكذا لا توجد ديمومة عند موليير، ولكن يوجد عنده «المثل الخالد لغباء خالد». وبمحاذاة هذا، فإن «التكرار الذاتي للشاعر» الذي تحدثه فينا مسيرة انفعال الشخصية، لتجعلنا نضحك مجدداً، مثل المرة الأولى في الخلود المضاعف للعقل والشعور. ويجب أن نلاحظ أن بوليه لا يذكر أية شخصية، وأية مسرحية كبرى. ولكنه يستشهد بـ *la lettre sur la comédie de l'importun* كما يستشهد بـ *Labrege de La Philosophie de Gassandi* التي كتبها *Bernier*. وإن كل واحدة من هذه «الدراسات حول الزمن الإنساني» لتختزل عملاً واسعاً في مجردات بسيطة، وإنها لتعيدنا إلى صفاء العقل، مكثفة في صيغ جميلة مثل: «لم يكن» للعمل الأدبي الذي قامت به السيدة لأقييت سوى هدف واحد: العثور على علاقات الإنفعال والوجود». أو مثل التعريف الرائع لرواية «البحث عن الزمن الضائع»: «إنها رواية وجود يمضي بحثاً عن جوهره».

إن دراسة الكتاب الذي خصصه جورج بوليه عن «الفضاء البروستي»، ليسمح برؤية أفضل لاتساع منهجه. فالسارد في رواية «البحث» يتجه نحو الأمكنة

الضائعة، والمشاركة دائماً مع حضور إنساني. فالشخصية تبقى مرتبطة بمواقع بدائية، ولكنها إذا كانت تعبر من مشهد إلى آخر، فإننا لا نرى الفاصل بين المشهدين. وهذا يعني إذن أن الفضاء ليس متجانساً. ولكي يتجاوز بطل رواية «البحث» هذا التششت، فإنه يفكر بحلول مختلفة: الرحلة، والتغيرات الدائمة في المنظور، واللوحات. «فالزمن عند بروست هو زمن مكاني، ومتجاور». وهو الذي يشكل فضاء العمل الفني، وهكذا فقد سبر الرواية كلها وأعاد بناءها. غير أن المقصود لم يكن في معرفة كيفية رسم بروست للفضاء، ولكن ما يمثله الفضاء بالنسبة إليه: إنه لم يكن شيئاً، ثم صار كل شيء. وإن العرض ليفتن القارئ بما فيه من إلغاءات رهيبة ومقاربات رحيمة. ولكن الناقد غالباً ما كان يمرر نظاماً منطقياً بوصفه نظاماً لتسلسل الأحداث زمنياً (ولقد عاب عليه مارسيل ريمون هذا بخصوص Amiel). وبالإضافة إلى هذا، نجد في «Temps Retrouve» أن الانفصال — والفضاء يرتبط به — يختفي، شأنه في ذلك شأن معظم القضايا الإنسانية. وما كان ذلك كذلك إلا لأنه يصبح قضية أدبية. وسيكون هذا معلوماً لدينا إذ علمنا، على وجه الخصوص، أن آخر ما كان يطمح إليه بروست هو إظهار الأبطال في الزمن أكثر من إظهارهم في المكان (وهذا عكس ما يقوله بوليه). وهكذا يتحول الفضاء إلى زمن: فشامبري، وكذلك فينيس لم تعد مدناً، ولكنها لحظات. وإن اللوحات التي يراها جورج بوليه متجاورة، إنما هي إشارات لعبور الزمن.

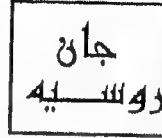
وإننا لنرى جمال نقد التطابق، وخطره أيضاً. إنه نقد يتطابق مع العمل أو الموضوع (كما هي الحال عند ريمون) بصورة أقل من تطابقه مع وعي الكاتب. وإن تفاصيل النصوص والأعمال الخاصة لتبرهن على هذا. إذ ربما تنقص نصوص جورج بوليه أحياناً، على الرغم من سحرها الشعري، حركة الذهاب والإياب ما بين سطح العمل وجذره، كما طالب سبببتر بذلك. ومع هذا، كم هو ناجح، كتلك



اللوحتين الرائعتين اللتين اقترحهما لبودليير ولرامبو في كتابه «الشعر المنفجر» (1980). فما نسمعه فجأة، إنما هو صوت بودليير في فم الناقد: «ماذا أكون، أنا، بودليير؟». «يسأل بودليير نفسه: ماذا أكون. أو هو يسأل بالأحرى: من ذا الذي لم أعد أكونه؟. فالوعي بالذات هو وعي الكائن الذي نكونه. وإنه ليكون في هذه الحالة دون وعي الكائن الذي لم نعد نكونه، والذي أصبحنا نتباين منه بأثر السقوط والفجور». وهذا نقد شعري مثل نقد بودليير نفسه. وإنه أيضاً نقدي فلسفي، ذلك لأن الناقد «يجد نقطة انطلاقه في كوجيتو (فكر) الآخر «الذي يعطيه خيط تطوره، فللكاتب نظام عقلي، وعلى الناقد أن يعثر عليه. وليس ثمة رتابة أبداً، ذلك لأن «الشعور بالذات هو الأمر الأكثر فردية في العالم»: قروسو في معارضته لديكارت يمكنه أن يقول: «أنا أكون لأنني أفكر». وبهذا يكتب جورج بوليه التاريخ الأدبي لكوجيتو (الفكر). وإنه لفعل مؤسس للأعمال. وليست هذه العملية ممكنة إلا إذا أعاد المرء في ذاته تجربة الكتاب. ولقد نشأت عن هذا دراسة الزمان والمكان: «ماذا أكون؟ ومتى أكون؟ وأين أكون؟». إنها الكلمة الأخيرة للوعي النقدي.

## Jean Rousset

(ولد عام 1910).



4

عمل جان روسيه أستاذاً في جامعة جنيف، ويعد عمله النقدي من بين الأعمال الأكثر أهمية لهذه المدرسة، وهو يحتل فيها مكاناً مميزاً؛ إنه مكان يلتقي فيه تذوق الأشكال الآتي من عشق الفن، والوعي النقدي، وإن كتبه المتأمله دائماً والمكتوبة لقليلة في عددها: «أدب العصر الباروكي في فرنسا» (1954)، «الشكل والدلالة» (1962)، «الداخل والخارج» (1968)، «نارسييس روائياً» (1973)، «أسطورة دون جوان» (1978)، «تلقني عيونهم» (1981)، «القارئ الحميم» (1986). وتكمن أصالة روسيه في أنه كان يستند إلى تاريخ الفن والجمال، بينما كان رفاهه ينطلقون من تجربتهم في الفلسفة وفقه اللغة. وإذا كان مختصاً في القرن السابع عشر الفرنسي، فقد كان عارفاً المعياً بالباروك الروماني، ولقد وسّع، بعد أطروحته في عام (1954)، ميدانه، فغطى القرن العشرين: (Robbe - Grillet en marque le terme Chronologique) لقد كان «أدب عصر الباروك في فرنسا» حدثاً. فهو واحد من كتبه «كتلك التي كتبها ريمون، وبيغان) التي تعيد، وتجمع، وتركّز، وتتجاوز أعمالاً سابقة، لم تعد تظهر منذئذ إلا بوصفها كتباً تمهيدية. وثمة آخرون كانوا قد حلموا، منذ كتاب «أوجينو دورس» (عن الباروك – الترجمة الفرنسية 1935) أن يستعيدوا من تاريخ الفن صنف الباروك لكي يطبقوه على الأدب (بواس، كوهلير، ليبينغ، ريمون، ويليك). وما كان ينقص هو التركيب. ولقد كان المقصود

تحديد جدول يمتد من عام (1580) إلى عام (1670)، ومن مونتني إلى بيرنان، وذلك عبر الزمن. وأما في فرنسا، فإن الظاهرة أوربية من حيث المكان. ثم هناك تعريف سيسستار من «الهندسة الرومانية لبيرنان، وباروميني، وبيير دي كورتون»، وذلك لأنه من الهندسة فقط نستطيع أن ننتظر تعريفاً مجرداً وأكيداً عن الباروك. وكذلك، فهي التي يقوم على عاتقها تزويد العمل الباروكي المثالي بالمعايير. وإذا كانت المبادئ قد طرحت هكذا، فإن منهج التحليل والعرض سيتخذ من الموضوع منحاً له. غير أن هذه المواضيع ستكون أشكالاً أيضاً. وسينتظم التطور حول موضوعين كبيرين: التحول، وستكون سيرسي (cîrcé) رمزاً له، والتفاخر، وسيكون الطاووس رمزاً له. وتظهر في الجزء الأخير أشكال الباروك، ومعايير الباروك الأدبي. كما ستظهر العلاقات مع المؤلفين، والمدارس، والفترات الزمنية المجاورة. ونلاحظ أن كل جنس يمثل موضوعاً مفضلاً: فرقصة الفناء تمثل التحول والمسرحية المساوية التي تتخذ من الرعاة إبطالاً لها (La Pastorale) تمثل القلب والهرب، والمهابة المساوية تمثل التخفي وخداع النظر. وعندما يحل روسيه الأعمال الأدبية، يضع تناغماً بين مستويات النص: «بين بطل يعامل بوصفه لعبة وكائناً متحولاً، وبين تركيب مفكك، ومفتوح، ومنظم حول عدة مراكز. فالفعل يتضاعف، والزمن يمتد، والخطوط تنقطع، والخيوط تشتبك، والممثلون ينتقلون، والمادة الدرامية تتكاثر، فتعطي انطباعاً بالحركة، والتعقد، وبحمل ثقيل». ونجد من بين الموضوعات المسيطرة موضوعاً يخص الحركة (الماء)، والنار، والهروب، والموت. وبما أن فائدة التصنيفات الأدبية تقوم على تغطية النصوص، فإن روسيه يعيد إلى دائرة الضوء أدب العذاب، والقلق الليلي ومشاهد الطبيعة الحزينة. وإنها لحركة يسيطر فيها الفناء على الموت في صور النار، والثلج، والغيم، وقوس قزح. من ذلك ما نجده عند مونتني «فالرسام ونموذجه متحركان» وكذلك الحال بالنسبة إلى بيرنان الذي، حين أراد أن يرسم لوحة نصفية للوي الرابع عشر، لم يطلب من الملك

أن يقف. فلقد تركه يتحرك. وإن الحركة هي أيضاً ماء الحقائق والنصوص. ففن الباروك «يصنع منها عملاً فنياً». ونرى أن هذه المواضيع قد تم عرضها، وأن الكاتب يحدد، في الثلث الأخير من أطروحته، معايير العمل الباروكي: إنها تتمثل في عدم الثبات، والحركة، والتحول، وسيطرة الزخرفة. وهذا يعني أن المنهج يقتضي إذن إقامة تعادل بين موضوعات الهندسة الأساسية والرسم الباروكي، وبين مواضيع «مجموعة من الأعمال الأدبية المعاصرة». كما يقتضي اختبار برهان مضاد، وذلك انطلاقاً من استعارة (صممت تصحيحاً تنكرياً)، ومن نموذج شعري (متحرك كما الموج أو الحلزون)، ومن بنية في طريقها إلى الانفجار ومن كل عمل شاعري مثل عمل مالير ب (Malherbe). فلقد تم بناء هذا العمل في الواقع بناء مضاداً للباروكية، ولكنه لم يتخلص منها تماماً: «فالمرء يكون في بعض الأحيان باروكياً على الرغم منه». وإذا نظرنا في عمل كورنييه، فس نجد أنه يتابع البرهان المضاد: فبعد فترة من الإلتزام بالباروك، اتجه العمل إلى التخلص من التغيير، والتحول. ولكنه اتجه لكي يقع في سمة أخرى، هي التفاخر. والتفاخر يعبر بالفعل عن موقف باروكي، يمد الطاووس رمزاً له. وإن هذا أيضاً لهو الطوق الأبستيمولوجي: فلقد انطلق روسيه من الفنون المراثية، فاستخلص مبادئ وجدها في النصوص. وكانت النتيجة إنشاء القرن السابع عشر الفرنسي إنشاءً جديداً، لم تعد الكلاسيكية تحتل فيه المكان كله، سواء نظرنا نظرة مختلفة إلى الأعمال المعروفة (كورنييه، مولير، ماليرب)، أم أعدنا اكتشاف كتاب منسين، لأنهم ليسوا كلاسيكيين (نشر جان روسيه في عام 1961 مختارات من شعر الباروك الفرنسي). فللمنهج إذن قيمة كشفية. ذلك لأن الأدب الذي تحدد الكلاسيكية نفسها بوصفها مضادة له، قد عاد إلى الظهور، ملخصاً في هندسة: «فعوضاً عن تقديم نفسه بوصفه الوحدة المتحركة لمجموع متعدد الأشكال، فقد حقق العمل الكلاسيكي وحدته بتثبيت كل أجزائه بالنظر إلى مركز ثابت».

وعندما عاد جان روسيه بعد خمس عشرة سنة في كتابه «الداخل والخارج» إنه دراسات عن الشعر والمسرح في القرن السابع عشر) إلى كتابه الأول، قام بتحديد مسيرته. فعلى الرغم من «مخاطرة المعادلات الخادعة»، كانت «الأعمال الأدبية بحاجة إلى إضاءة غير مسبوقة. كما كانت تستدعي طرقاتاً جديدة في المقاربة». ولقد كان القرن السابع عشر، أكثر من أي قرن آخر، محتاجاً إلى تعديل. وبعد هذا الأمر واحداً من أهداف التاريخ الأدبي: إنه التعديل، واستيفاء رؤية الماضي. وأما المنهج، فنحن نعرفه: إنه التحول، بوساطة الأشكال المرنية. وإنه نفسه ليقوم على «جميع مخلوقات الأمة في عصر من العصور»، «وبغض النظر عن اللغة التي كانت مستعملة». فالمقصود هو تسجيل تاريخ فعلي «للخيال يتعاضد فيه فنانو عصر من العصور، ابتداءً من الحجر إلى المشهد، ومن الملون (لوحة ألوان الرسام. متر). إلى الكلمة». وإن هذا التاريخ ليجد عبر المنعطف الإيطالي الأنيمة الأوربية لفقهِ اللغة الروماني، كما يجد أيضاً اهتمامات القرن العشرين: «كيف يمكن أن يتجرد المرء تماماً من موضوعه من غير أن يلغي هذا الموضوع وأن يفقد كل علاقة معه؟». فبعد المغامرة الأولى، والنظرة الجديدة، يأتي السبر العلمي: «يمكن للمرء من الآن فصاعداً أن يعمل على القرن السابع عشر من غير أن ينشغل بالباروك. وذلك بشرط أن يكون قد هضم كل المعطيات» وإذا كان بعضهم قد انتقد استعمال الأصناف الأدبية، فإن هذه تسمح ببدء البحث، وتمنح «رؤية جديدة»، و«نظرة جديدة» و«فرضية عمل»، و«أداة لمساءلة الواقع».

لقد كان جان روسيه مؤرخاً للخيال، ولكن ألم يعالج سوى الموضوعات والمضامين؟. إن كتابه «الشكل والمعنى» (1962)، ليظهر العكس من ذلك حين يقترح «قراءة للأشكال» فهو إذ يلخص ويحدد العلاقة مع الشكلايين الروس، ومع النقد الإنكليزي، ومع فلوبير، ومالارمييه، وبروست، وفاليري، ومع مؤرخي الفن أمثال

فاسيون ويلفلان، فإنه يمنح هذا الهدف إلى النقد: وإنه ليتجلى في: «القبض على المعاني عبر الأشكال، وفي خطر القرارات وفي العروض الكاشفة، وفي استخلاص العقد من النسيج الأدبي، وفي الصورة وفي البروز غير المسبوق والذي يشير إلى العملية المتزامنة لتجربة معاشة وتنفيذ». فإذا كان الكاتب «يكتب لكي يقول نفسه»، فهذا لن يكون إلا «بوساطة تركيب ما». فالتجربة «تتطور بالأشكال»، وهي تطور معاني الأشكال. ولن يكون هذا كما يعتقد بعض الكلاسيكيين، أي بوساطة توضيح فكرة مسبقة الصنع، وتقليد لنموذج سابق، ولكن عبر مصادقات الإبداع: «وينتج عن الدراسة المخصصة في هذا الكتاب لمدام بوفاري، أن الذي لم يكن متوقعا في المخططات الأولية، يكون بالضبط أكثر انتماء إلى قلوبير في الرواية». فالعمل الفني إنما هو «الفتح المتزامن لبنية ما وفكر ما». وإن هذا التعريف ليأتي بواجبات الناقد: يجب «قراءة الحلم عبر الشكل»، وفي العمل فقط. فالتاريخ الأدبي يعد «مقدمة»، و«حاجزاً» وأداة في خدمة النقد. ويمكن القول إنه علم مساعد. ولكن ليس من السهل القبض على الشكل، لأنه لا يختزل نفسه في التقنية، وفي التركيب، وفي «توازن الأجزاء». إنه «خط من خطوط القوى، وصورة مستحوذة، ولحمة من الحضور والصدى، وشبكة تقاطعات»، وبهذا المعنى، يكون النقد مغامرة إذن: «يجب أن لا تسبق الأداة النقدية التحليل في وجودها». وكما هي الحال عند سببترز، فإن القارئ يكون حساساً بخصوص «المؤشر الأسلوبى»، و«حدث البناء غير المتوقع والكاشف». ولكنه لا ينسى بأن «العمل يشكل كلاً واحداً»، وأن عليه أن يكون «كلياً».

يتصور روسيه، وإن كان عضواً بمدرسة جنيف، القراءة بوصفها «محاكاة». إذ ليس ثمة حكم آخر غير اختيار العمل لدراسته ضمن حركات الفنان أثناء العمل: «فهذا القارئ الكامل، وهو يتصور جملة لواقط (antennes) ونظرات، سيقراً

العمل إذن من كل نواحيه. وسيتبنى منظورات متغيرة، ولكنها متصلة فيما بينها. وسيكشف عن مسارات شكلية وروحية، وعن تخطيطات ذات أفضلية، وعن لحم من الحوافز أو من المواضيع التي سيتابعها في دوراتها وتحولاتها. وسيسبر السطوح ويحفر ما تحتها حتى ينكشف المركز عليه أو تظهر مراكز التقاطعات، أو المسكن الذي تشع فيه كل البنى وكل المعاني. وهذا ما يسميه كلوديل النموذج الحركي». وهكذا يدرس روسيه في رواية «مدام بوفاري» حافز النوافذ والنظرات الغائصة، وهو «موضوع لأحلام اليقظة عند فلوبيير»، و«لترسيمة صيفية» و«أداة بيانية». كما أنه يمثل عند كلوديل «شاشة العزل»، وعند بروسن نظام الشخصيات وصلتها، أو الكتب النموذجية، أو كتب الراوي المفضلة وشعارات العمل. فبنية العمل هي «التي تكشف عن المعنى». إن نجد في رواية «البحث عن الزمن الضائع» شكلاً دائرياً تتطابق فيه بداياتها ونهاياتها تماماً. فكومبري «مبني على مخططين متتابعين»: اليقظة الليلية، وهي تعيد مأساة النوم. وهناك مادلين، وهي كل ما تبقى في كومبري. وأما في «الزمن المستعاد» بقلب العبارة، فإن اكتشاف اللازم (بلاطات غير متساوية)، واكتشاف مرور الزمن (الرقصة المقنعة) لأمران يتطابقان مع مقطعي الإفتتاح. فهذه البنية تبرز «جدل الزمنى واللازمى». وهو جدل الإفتتاح كله». وإنها، إن تفعل هذا، لتظهر في الوقت نفسه كيف أصبح البطل راوياً، فقادراً أن يكتب بداية العمل وهو يفلق الحلقة. وأما ما يقع بين الإثنين، فيدرسه روسيه من ثلاث وجهات نظر: سوان وشارلو، كتب الشخصيات المفضلة، الحب، أما سوان كما بين ذلك كلود ادمون ما في في كتابه «تاريخ الرواية الفرنسية منذ عام 1918» فهو الأب الروحي والأخ الأكبر للبطل الرئيس. وإنه ليجسد وسواسه الدائم: العقم. وقريباً سيقوم شارلو بوصفه ضمن هذا الدور. فهو عاشق شقي، وفنان فاشل. وإنه لي طرح هو أيضاً السؤال الجوهرى: «هل يمكن للمرء أن يخرج من سطح الوجود لكي يصل إلى سطح الإبداع؟». إن هذا التحليل الذي كان جديداً في

زمنه، كان موحياً بالنسبة إلى كثير آخرين.

يمكن لمصور الشكل أو البنية أن يمتد إلى دراسة مشاهد الرواية، كما في «تلتقي عيونهم»، «المشهد من النظرة الأولى في الرواية» (1981). إن هذا الكتاب قد خصص لدراسة مشهد مفتاحي. وهو مشهد في كل الروايات. فمشهد اللقاء الأول، يعد شكلاً ثابتاً. وإنه لمشهد مرتبط بالوضع الأساسي (وهو خارج الأدب على كل حال). إنه يطلق حركة، ويثير سلسلة من النتائج القريبة والبعيدة، تكون هي الناتج الذي لا مفر منه لهذه اللحظة الأولى. وإن رمز الإتصال (code) لقائم فيه، فهو يقاوم الإنقطاعات التاريخية، والثقافية، والقائمة غير المتناهية تقريباً. فلقد بنى روسيه نموذجاً انطلاقاً من سمات ثابتة. وبهذا، استخلص ثلاثة متصورات: الأثر، والتبادل، والتجاوز، ثم وضع الإنزياحات إزاء هذا المعيار. فتحليل المشاهد يتحقق من الحضور الدائم لبعض السمات: وصف المكان، المفاجأة، تبادل النظرات، التعارف (الأفلاطوني). ويمكننا أن نستخلص ثلاثة نماذج للمشاهد، وذلك عن طريق حركة في التركيب لها مصطلحات ثلاثة: ظهور، فاختفاء البطلة (أو البطل)، فبحث، ظهور، فالتقاء، فبحث (بحث مشترك يقوم به البطلان معاً). تركيب بين الإثنين السابقين: ظهور فإتصال، بحث مشترك، ثم اختفاء. ويتغير مكان هذا المشهد، كما يتغير تكراره أيضاً. ويجب العثور أيضاً على قسمة منطقية بين الوضع في مكان والوضع في مشهد. فالوضع في مكان يحتوي على المؤشرات الزمانية والمكانية. كما يحتوي على اللوحة، وعلى الاسم. بينما ينظم الوضع في مشهد العناصر الحركية التي تتعلق بأصناف ثلاثة، وذلك تبعاً للأثر (كالمفاجأة مثلاً)، وللتبادل، وللتجاوز (والذي كان يمكن أن نسميه انتهاكاً). وتبدو هذه الترسيمة جافة. غير أنها عندما تكون مزودة بمساءلة نصوص لستين كاتباً (منذ القديم إلى بروست) أغريقياً، وألمانياً، وإنكليزياً، وإيطالياً، وفرنسياً، وسويسرياً بالطبع، فإنها تنتج اكتشافات مضاعفة، وذلك عبر نزعة من المخترعات، لذيدة. ولقد



غدا من غير الممكن أن نشرح مشهداً من مشاهد هذا اللقاء من غير هذا الكتاب، الذي دشّن نظاماً جديداً: علم صناعة المشهد (scénologie)؟. ويجب أن يأخذ المرء حذره، فلا يخلط بين الأدب والحياة. ولو كان في هذا الكتاب زيادة في السمات التقنية (مثل طول المشاهد، ودراسة الموضع)، لميزته من «فن الحب» الجذاب.

يستطيع روسه أن يعبر من المشهد إلى الأسطورة. وذلك بشرط أن يعزل العناصر المميزة، أو الثابتة التي يشكل اجتماعها «سيناريو مستمراً». وهكذا، فإن أسطورة دون جوان تتألف من مجموعة من الأبطال أنثوية، «جهاز ثلاثي في الحد الأدنى». وإن المنهج البنيوي ليخرج من تعددية طرق القص ومن المصادفات التاريخية ترتيباً منطقياً. فالتحليل الدقيق للمشاهد أو لأجزاء منها يعيد إلى كلية النسق. وليس هذا تجاهلاً للتاريخ، لأن السبر عبر الزمن يجعل «النسق» المعترف به سابقاً والمحدد في ثبوتية يعيش ويتنفس». وتعقب النسق رحلة عبر تحولات الأجناس الأكثر تنوعاً (المسرح، الأوبرا، الروايات، القصص القصيرة، القصائد، المقالات، والنقد أخيراً).

إن الأشكال الأدبية لا تحصى. وإن واحدة منها لتهمين، إنها الشخص الأول. ولقد كرس جان روسيه من أجلها كتابه «نارسييس روائياً». ورصد فيه «نموذجية قصة الشخص الأول». فهذه الروايات إنما ينظمها وضع الراوي، والنظام الزمني، والمنظورات السردية. ويمثل هذا الأمر عند هذا الناقد، المنتمي إلى مدرسة جنيف، والأكثر قرباً من الشكلايين، عودة إلى الوعي، وإلى التوافق مع وعي الكاتب. هذا أمر أشار إليه جورج بوليه (الوعي النقدي – ص 158-1964)، فقال: «ربما جان روسيه وحده ينجح قائماً في مكان للتوفيق والتبادل، حيث يظهر الترابط بين الأنا والعمل بوضوح»

إذا كان جان روسيه يبدو في بعض المرات أكثر قرباً من الأشكال ومن تاريخ الفن، فإن جان ستاروبانسكي يعود عمداً إلى الوعي، وإلى نظم علمية أخرى: طب الروح (وهو ما يسمى «طب الأمراض العقلية أو النفسية»، أو «التحليل النفسي»). وقد كان هذا لدراسة الرسامين (لقد نشر «تاريخ الطب»). وهناك أيضاً اللسانيات: إنه كاتب مقدمة «دراسات في الأسلوب» لسبيتزر. ولقد درس الجناس الصحفي عند فيرديناند دي سوسير («الكلمات تحت الكلمات». منشورات غاليمار 1971). وإن قرئه المرجعي - ومن ليس له؟ كان من غير شك القرن الثامن عشر. فقد كتب «مونيسكيو بقلمه» (منشورات سسوي، 1952)، «جان جاك روسو: الشفافية والعقبة» (منشورات بلون، 1957، ثم غاليمار 1971). «العين الحية» (منشورات غاليمار، 1961). وإنه لكتاب يحتوي على دراسة عن روسو، ولكنه يلامس القرن السابع عشر (كورنيه، راسين)، كما يلامس القرن التاسع عشر (ستاندال)، وثمة كتب ثلاثة أيضاً عن القرن الثامن عشر وإنها لتخلط بين الفنون الجميلة والأدب: «اختراع الحرية» (منشورات سكير، 1964)، «1789 شعارات العقل» (1973)، «ثلاثة هيجانات» (1974)، «لوحة الفنان المهرج» (سكير، 1970)، وهو كتاب يتم التفكير في الرسم، ثم هناك «مونتين متحركاً» (منشورات غاليمار، 1982)، وهو حقل للتاريخ الأدبي

جان  
ستاروبانسكي

لقد كان تلميذاً لمارسيل ريمون مع جان روسيه. وهو عضو في مدرسة جنيف الأكثر انفتاحاً على العلوم الإنسانية.

إنه يحدد متصوره عن النقد، منذ المدخل الذي وضعه لكتابه العين الحية «حجاب بوبيه». وإننا لنكتشف فيه أصل تذوق ستاروبانسكي للرسم وللأدب في وقت واحد: إنه النظر. فهذا الكتاب يقترح في الواقع، شعرية النظر ونظريتها، «إن المقصود بالنسبة إلى النظر أن يقاد الذهن بعيداً عن مملكة النظر: ضمن مملكة المعنى». فالنظر النقدي يحول، ويعطي حياة؛ ثمة عالم متخيل يستيقظ بفضل، وإنه ليطالب «التواصل والتطابق». ولكن على الناقد أن يحتفظ بأبعاده أيضاً، أن «يحتفظ بحق النظر». كما أن عليه أن يصل إلى «معنى مستتر» بعيداً عن «المعنى الظاهر». فأي معنى؟ يفكر ستاروبانسكي مرة «ببدهيات النظرة الأولى، والأشكال، والإيقاعات»، والكلمات. كما يفكر مرة أخرى بشكل أكثر ضبابية «بالحياة أكثر سعة» أو «بالموت متغير الوجه، والنص يعلن عنه». ومن هنا، فإن النظرة النقدية واقعة بين متطرفين: فإما أن تضيق في «الوعي الخرافي الذي يمكنها العمل من ملاحظته» لأنها تشارك كلية في «التجربة الحساسة والعقلية التي تنتشر عبر العمل». ولكن إذا كان الحال كذلك، فثمة محاكاة كاملة تهدم الخطاب النقدي. وإما، لكي يكون الكلام عن العمل، يجب الإبتعاد عنه، وأخذ «منظور شامل» عن المحيط الذي يرتبط العمل به (وهذا ما يفعله المؤلف في كتاب «اختراع الحرية»). فالحيط هو الحافز غير الواعي، وهو علاقات «قدر وعمل بمحيطهما التاريخي والاجتماعي». ولكن إذا كان المحيط، تحت هذه النظرة المشرفة، يحدد العمل، فإنه لن يكون من الممكن جرد هذه العلاقات جميعاً. وإلا فإن العمل سيتلاشى. والنقد الكامل يوفق بين النظرتين: بين نظرة تتجه «إلى الكلية»، ونظرة تتجه «إلى الحميمة»، وذلك بين ذهاب وإياب. وأنه لأمر مهم في نهاية هذا النص، أنه حين

نتكلم غالباً عن اختيار الكتاب والكاتب، يأتي ستاروبانسكي ليصنع بدلاً عن هذه الصورة تبادل النظرات: «إنه ليس من السهل أن ننظر بعينين مفتوحتين لكي نستقبل النظرة التي تبحث عنا». فالعين الحية تدرس إذن موضوع النظرة عند عدد من الكتاب. ولكن الناقد، منذ أن كتب كتابه عن مونتيسكيو، قد أشار في «روح القوانين» إلى «الرؤية المشرفة: والتي هي أيضاً رؤية علاقة الأشياء فيما بينها». وهكذا، فإن «فوضى روح القوانين التي صنعت يأس عدد من المعلقين - إنما هي تعبير عن هذه النظرة العامودية، التي ترى من شاهق مبادئها كل النتائج دفعة واحدة في تزامن كثيف». فالنظرة تتحكم بالمعرفة والسعادة. وإن العمى الذي أصاب مونتسكيو ليثير رؤية الأفكار ولا يمنعه من إملأ كتابه. فالدراسة تنتهي حول الموضوع نفسه: إن البشر «يستطيعون أن يفهموا، إذا كانوا يعرفون النظر». وإنهم ليستطيعون أن ينتصروا لوضع النهار» ضد «المخاوف الليلية». وهكذا كان ستاروبانسكي لا يرى عند مونتسكيو خادم الأنوار سوى النور.

وتوجد الصورة نفسها في 1789. فلقد قرأت هذه السنة كما لو أنها نص له أسلوبه: «إنه لأمر مشروع وضروري أن يقابل أسلوب الحدث الثوري بأسلوب الأعمال الفنية التي ظهرت في العصر نفسه [...]». فلقد كانت الأنوار المنتشرة للثورة من القوة بحيث لم يعد جزء من الظاهرة المعاصرة إلا وقد أضاء». فالنظرة الشاملة للناقد تلتقي نور الحدث، الذي يغمر كل الأعمال. ولذا، فإن ستاروبانسكي، في الكتب التي كرسها عن القرن الثامن عشر في مجموعته، لا يعزل أي عمل على وجه الخصوص. إنها أعمال تمثل مرة «آخر نيران فنيس»: فمع غاردي تموت الزخرفة الثقيلة في لوحات «يسيطر النور فيها وحده»، بينما يرسم جيان دومينيكو تيبوللو موت بيلسينيلا. كما تمثل مرة أخرى «موزار الليلي»: ليل ينهي «أعراس فيغارو»، ومشاهد ليلية لدون جيوفاني تدوم إلى لحظة النهاية،

وهزيمة ملكة الليل في «الناي المسحورة». ونجد في هذه الأوبرا الأخيرة أن «البطل المظهر يستقبل كائناً يجمع ميراث الكون النهاري والجنون الليلي زوجة له. وذلك لأن باننما هي ابنة الساحر المحسن والملكة المظلمة». وأنه لمن أجل هذا تتعاقب «أسطورة الشمس للثورة». وستاروبانسكي يقرأ آثارها عند شعراء الزمن، مثل ألفييري، وكلوبستوك، وبليك. فهذه الأسطورة هي «القراءة المتخيلة للحظة تاريخية»، و«فعل إبداعي يساهم بتغيير مجرى الأحداث». ومن هنا، فإن الفكرة الثابتة للشفافية والنور، والتي أتاحت لستاروبانسكي أن يفهم روسو أكثر من أي شخص آخر (ما عدا مارسيل ريمون)، جعلته يرى الثورة في جو جديد، حيث يتصالح الفن مع الظل: فالإنسان عند غوته، «يمتلك ظلاماته الداخلية، بينما تحمل العين نوراً ينتمي إلى نور الشمس». فعندما ينظر الفنان إلى الطبيعة، إذا كان فناناً، فإنه يبدع طبيعة ثانية «حيث يتخلد أخيراً التوازن المحكوم عليه في كل مكان بالزوال». وإن بليك الذي كان «مسكوناً بانبثاق النور قد أعاد نفسه مظلماً». وكذلك كان غويا مسحوراً بالنور والظل.

يبني ستاروبانسكي في كتابه «اختراع الحرية» كل النسق الموضوعاتي للقرن الثامن عشر. ولقد خلط بين تاريخ الثقافة، والفنون، والأدب: «الفضاء الإنساني للقرن الثامن عشر»، «اللذة فلسفة وأسطورة»، «القلق والعيد»، «محاكاة الطبيعة»، «توق إلى الماضي وطوباوية». ولن نعجب إذا رأينا الكتاب سينتهي عند «لذة المشاهدة»: «هكذا كان العصر العاشق للأنوار، وللجلاء، وللوضوح، ولعقل تبدو عملياته منتمية انتماء وثيقاً إلى النظر. ومادام الأمر كذلك، فإن النظر هو الأكثر اتساعاً من كل حواسنا: انه ينقلنا بعيداً، على جناح الفتحة. وإن انتصار العقل هو للذي يجعل الكون المحسوس عما قريب لا يكفيه». فهذه الخلاصة تدع المرء يتنبأ بزمن لم يعد المظهر فيه يكفي، وكذلك، فإن مؤرخ الثقافة لم يعد يستطيع أن يشفي

غلبه بنظرته الموسوعية، فهو يعلم أنه إذا كان يحتوي كل الأعمال وكل الفنون بنظرة واحدة (كما قال ذلك كيرتيوس)، في النور الجميل الذي ينتمي إلى المشهد والمشاهد في وقت واحد، فثمة شيء يفوته: إنه أساس الكائن، وأصالة الوعي الفردي والليل الداخلي.

إنه لمن أجل هذا أن جزءاً من عمل ستاروبانسكي يقترب من التحليل النفسي. فالمعرفة الواسعة التي تتبخر في أعماله ذات الرؤية الشاملة، تتركز في دراساته الأحادية وفي مقالاته المخصصة لكاتب واحد. وإن المقدمة التي وضعها في «هاملت وأديب» لجونيس (منشورات غاليمار، 1967، ثم أعيد نشرها في مجلة العلاقة النقدية)، لتشكل لوحة شخصية لفرويد في لحظة اكتشاف عقدة أديب. ولم تحظ المقدمة باهتمامنا لأنه عالج فيها هذا الموضوع المعروف جيداً، ولكن لأنها تُظهر، بالإضافة إلى الإلتحام الكلي، وربما المؤقت، إلى النظرية الفرويدية، كيف يستعمل فرويد الأدب، إذ يستعمل على كل حال سوفوكل وشكسبير. وكيف يستعمله خلال الأزمة الخطيرة التي يمر بها. فإذا رفَعنا للحظة من اللحظات عن فيينو العظيم الهالة المتعلق بها، فذلك لكي نتحقق أن ستاروبانسكي يتكلم كما يفعل هذا عن كاتب أسير موضوعاته ومواده. وأما فرويد، فعندما ذكر هاملت مباشرة بعد أديب، فقد وجد نفسه في «تماس مع التحليل الذاتي للذاكرة الثقافية والتجربة السريرية (Clinique)، (الأيكون هنا صوت ستاروبانسكي نفسه). وعندما تأخذ التوازي حاشية ما سجلت في الـ «ترومدوتانغ»، ويعود تاريخها إلى عام (1900).

فإن الناقد يقرأ فيها «ما يقوله لنا فرويد عن الكلمة المغطاة». فإذا كان شكسبير قد نظم هاملت بعد موت أبيه، فإن فرويد قد اكتشف النظرية الأدبية في الظروف نفسها: «إن الترومدوتانغ (La Traumdeutung) تعني معرفياً: يريد أن

يكون معادلاً لما كانه هاملت في تطور العمل المسرحي لشكسبير [...]، ففرويد هو شكسبير الذي حل نفسه». ومع ذلك، فإن أوديب هو أصل كل التأويل، فلا شيء يوجد خلفه، لأنه يمثل «العمق نفسه». وعلى العكس من ذلك، فإننا نسأل باستمرار ما الذي يوجد «خلف هاملت». وهنا تكمن فرصة لدراسة موضوعاتية لامعة: إن مسرحية شكسبير، وهي مسرحية كتبت في اللحظة التي تفككت فيها صورة «الكون» التقليدية، تبين المظاهر الكاذبة، والبعد عن الموضوع الفردي، فالمسرح ضمن المسرح، وموضوع الذاكرة، والخطاب المتشظي، كل هذا يشكل هاملت (مثل دون كيشوت)، إنه «فراغ فتان». وعندئذ يأخذ ستاروبانسكي ثانية العلل التي جعلت فرويد يقارب بين هاملت وسوفوكل، فإنه يؤكد أن مأساة أوديب تمنحنا «امتلاء الرمز»، عندما مأساة هاملت، على العكس منها، لا تمنحنا سوى جزء من «المعنى الكلي». وإن فرويد ليقترح إعادة كل شيء إلى المعنى: يبرر الأهمية العامة المنسوبة على هاملت، حضور أوديب في هاملت بقوة غير معتادة. وانطلاقاً من عبارات مثل: «هذا ليس كل شيء»، وفي «التعليم الإضافي»، وكذلك باستعماله الترقيم استعمالاً غير معتاد في نثره البليغ، فإن الناقد يقترب من الخلاصة بصبر المحلل وموارباته، فأوديب هو المعيار، وهاملت هو «النموذج الأصلي للشذوذ الذي يقضي أن لا يخرج أحد منضراً من المرحلة الأوديبية». وهكذا «نرى بوضوح أكبر». فالبطلان هما «الصورتان الوسيطتان بين ماضي فرويد وحاضره». وإن ستاروبانسكي ليكشف النقاب عن فكر فرويد: فهاملت كان يتمنى قتل أبيه، غير أنه لم يفعل. ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يقتل القاتل الفعلي، ذلك لأنه يعرف نفسه فيه. وهكذا، فإن اللوحة الشخصية للفنان قد انتهت في التحليل النفسي.

يبدو هذا الإلتصاق بفرويد أكثر تطامناً في كتابه «الهيجانان الثلاثة» (1974). وهو كتاب كرس لسوفوكل، والإنجيل، وفوسلي. (وهذا ما أشار إليه مارسيل

ريمون في رسالة بعث بها إلى جورج بوليه: «إن أطروحات فرويد نسبية جداً، **L'oedipe Contesté**». فالواقع التي تبدو أثناء التحليل النفسي، تفترض حواراً «بين أحياء»: «فعندما تكون الطبيعة سيدة النتيجة، فإن كل شيء يحدث كما لو أنه قتل شخصيته». فالتحليل النفسي يعالج أبطال المأساة كما لو أنهم كائنات واقعية لهم «مشاغلهم مع لا شعورهم»، بينما هم في صراع مع الربوبيات؛ لقد وضعنا علم الأمراض موضع المأساة، والصراع العائلي موضع الصراع مع الأولامب (إن لهذه الانتقادات ينبوعها في «الأسطورة والمأساة في اليونان القديمة» ل. ج. ب. فيرنان و ب. فيدال ناكيه، منشورات ماسبيرو /1972/). وبما أن ستاروبانسكي قد استبعد الإجراء التحليلي الكلاسيكي، فقد أعاد بناء سمة أجاكس، ولكنه خفف المأساة من «مغالاة التحليل النفسي» التي تسقطها التأويلات الحديثة عليها. فثمة قوى أخرى تتحرك. الاسم، والسلاح، وأثينا. وكل هذا يتواشج في مسافة ذات محطات ثلاث: «الغضب، المذبحة، المعرفة المستعادة». وهذه هي الفرصة لإعادة تعريف بعض التصورات الأدبية: «فالبطل المساوي، ما أن يظهر على المسرح، حتى يكون هو المعلق المتأخر على قدره التام. وأنه ليضيف على مسيرته الأسطورية التي يوشك أن يتمها، وعياً لا تحتويه الأسطورة، فالمأساة، انطلاقاً من الاسم المستوي للأسطورة، تبعد نوعاً من شعر الاستذكار والقرار يتسم في الوقت نفسه بحالة داخلية معذبة». وتظهر هذه الدراسة إذن، شأنها في ذلك شأن دراسة مارك التي تلي، الإنشغال المضاعف بسبر ما هو تبع لميدان التحليل النفسي: الجنون والإستحواذ، وذلك لكي تنجو من ريقة نموذج مسبق الصنع، فتجد بهذا تحليل القصة. كما تجد وعي - أي الفلسفة - الأدب الذي يؤول لكي يصل إلى المعنى.



وإنها لقضايا مجاورة تلك التي يعالجها ستاروبانسكي في مقدمته لـ *Clinicien es Lettres*. وهي أطروحة في الطب ليفيكتور سيفالان (أعيد نشره بدار «فتى مرجانة» 1980). فعندما يركز العلم المعرفة الطبية، فماذا يستطيع الأدب أن يقوله لنا. إن سيفالان، وهو أيضاً كاتب طبيب<sup>(1)</sup>، «ليشعر بأنه مخطيء إذ يجعل نفسه تابعاً للأعمال الأدبية». والسبب لأن أطروحته ليست سوى عمل نقدي «غير مباشر»، ينصب على النصوص. وإنه لمن أجل هذه ينضم في آسيا وفي أوقيانيا إلى حقيقة البشر. وكما هي الحال عند سوفوكل، ومارك، أو عند فوسلي، يجب الإمساك بالمعنى عند سيفالان: «إن سيفالان الشاعر، في عنوانه *Les immémoriaux* يجعل المتكلم بضمير الشخص الثالث يتكلم بضمير الشخص الأول. وذلك من غير أن يمنحه كلام علم الطب وخطابه: إنه جسد ثقافة محكوم عليها». فاند انسحب المقدس من هذه الثقافة وبقي الشعر فيها «البديل الميراثي الوحيد». ولم يعد، بالنسبة إلى الناقد، شيء آخر يفعله سوى أن يسير صعوداً نحو المعنى. وهذه هي رحلة المسارة للكاتب ولقد كان هذا سير طويل وباهظ: فلقد ظهر في عام 1982 كتابه «مونتين متحركا»، وهو بعد إعادة سبك لثلاثين سنة من الأعمال. وأن المقصود هنا هو قص أثر «حركة»، و«تمييز المراحل المتتابعة لفكر». ولكنه ليس «إعادة بدء لما فعله الآخرون»: لقد عرضنا لأفكار مونتين عن الحركة، ولم يكن وصفاً شاملاً لحياته، وفكره، وأسلوبه (كما هي الحال بالنسبة إلى فريد ريخ أو سايس). إنه النظرير لروسو، وقد أتى بعد خمسة وعشرين عاماً: «فهو حركة القراءة المتسائلة، حيث يسعى الناقد إلى إضاءة وضعه الخاص بتأويل الماضي الحي، وهو قاطن في ابتعاده وخصوصيته».

---

(1) - المرض بوصفه نكبة خيالية (العلاقات النقدية، ص (214-237)).  
 (2) - *Initiative*: مساري، والمسارة هي احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة. (عن قاموس النهل - متر).

وهكذا يبدو أنه ليس لمؤلف كتاب «مونتيسكيو متحركاً» من مهمة سوى أن يضع موضع البداية «خط سير» لمختلف الكتاب، وبعيداً عن المظهر. فما يلتقطه الكتاب «في حركته المتكررة بلا تنامي والمتغيرة»، ليدعونا لكي نفكر «بوجودنا في العالم». ومن هنا، فقد وجد الوعي النقدي رسالته، مع إمامه بكل المناهج من غير أن يكون تبعاً لأحدها، وإحاطته بكل اللغات، ولكن بصياغته لأسلوبه الخاص: إن اتباع «خط سير المعنى»، هو إعطاء معنى للأدب، وللعالم، ولأنفسنا في الوقت ذاته.

## النقد والخيال

### Gaston Bachelard

غاستون  
باشلار

1

يركز نقد الوعي على الذات التي تكتب. غير أن الثورة التي أحدثها غاستون باشلار (1884-1962) قد أدخلت خيال المادة بوصفه موضوعاً رئيساً

للدراسة. فلقد جدد غاستون باشلار في تسعة من كتبه النقد الفرنسي (لم تحظ كتبه بالنجاح نفسه في البلاد الأنكلو ساكسونية، وقلب مناهجه. هذه الكتب هي: «النار في التحليل النفسي» (1938)، «لوتريا مون» (1939)، «الماء والأحلام» (1943)، «الهواء والأحلام» (1943)، «الأرض وأحلام يقظة الراحة»، «الأرض وأحلام يقظة الإرادة» (1948)، «شعرية المكان» (1957)، «شعرية أحلام اليقظة» (1960)، «لهيب الشمعة» (1961)، ولقد كانت المناهج المستقاة من باشلار حتى عام 1970، وهي السنة التي انتصرت اللسانيات فيها، هي المناهج الوحيدة تقريباً التي تلهم ما يمكن أن نسميه «النقد الجديد»، غير أن باشلار نفسه كان قليل الإهتمام بتأسيس مدرسة، ذلك لأنه كان أولاً إبيستمولوجياً وفيلسوفاً من فلاسفة العلوم، ثم جاء متأخراً إلى التعليق على الشعر: لقد كان حاملاً متوحداً، على الرغم من أنه أستاذ كبير وكاتب عظيم.

لم يكن لباشلار منهج واحد، ولكن كانت له عدة مناهج (انظر ميشيل مانستوي: «غاستون باشلار والعناصر» 1967. وكذلك فانسان تيريان: «ثورة غاستون

باشلار في النقد الأدبي» (1970). ولقد تمت إقامة هذه المناهج وتصحيحها في هذه الوحدة؛ وإنه لمن الضروري إذن، حين تتبع مبادئ الفيلسوف وتطبيقاتها أن لا تشوه وأن لا يتم خلطها. وثمة عقبة أخرى تأتي من الاستعمال السمعي لمصطلحات مثل «التحليل النفسي»، «الظاهراتية»، «الشعرية»، استعمالاً جديداً للمعنى. إذ كل شيء يبدأ عام 1938 مع «النار في التحليل النفسي» (النار بوصفها كتاب المؤلف الأول والأخير)، وهي عنصر ينفلت من العلم، ولكنه لا ينفلت من أحلام اليقظة. وإن هذا الكتاب ليسم إذن جيداً العبور من المعرفة العلمية إلى المعرفة الشعرية: «إن المقصود في الواقع هو العثور على فعل القيم غير الواعية في قاعدة المعرفة التجريبية والعلمية نفسها»، ومن هنا، يجب تحديد كلمة «غير واعية»: «إنها تعني طبقة نفسية أقل عمقاً، وأكثر عقلاً (إذن تعني ما قبل الوعي). وكذلك الحال بالنسبة إلى الأحلام، فأحلام اليقظة تحل محلها، «وإنها تختلف اختلافاً كبيراً عنها، وهي بهذا تتمحور دائماً حول موضوع ما». ولذا، فهي تعيّن «مركّبات» لأن العمل الشعري يتلقى فيها «وحدته». ولكن هذه المركبات تحمل أسماء جديدة بروميتيه، أمبيروكل، نوفاليس، هوفمان)، وهي أسماء قريبة من يونغ (الذي يقترح باشلار أن يتممه) أكثر من قربها من فرويد: فالجنس يؤدي فيها دوراً محدوداً. وإنه لمن أجل هذا كان المنهج الأول هو منهج «التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية» وللاتجاهات النفسية التي تثيرها الصور البدائية. وإن الكتاب ليعبر كلما تقدم من واحد إلى آخر، ويستعير أمثله بمعدل أقل من الكتب العلمية ومعدل أكبر من النصوص الأدبية: «فكحول هوفمان هي الكحول التي تلتهب، وإنها لموسومة بعلامة نوعية، وذكورية نارية، بينما كحول ألان بوي، فهي الكحول التي تُغرق، وتعطي النسيان والموت. وإنها لموسومة بعلامة نوعية، وأنوثية مائية». وإنه، يكتشف باشلار أن الذهن الشعري «يخضع كلية إلى فتنة صورة مفصلة» (ص 128). غير أنه لا يتخلّى عن العقل العلمي: «فالحكواتيون، والأطباء، والفيزيائيون، والروائيون،

وكل الحالمين، ينطلقون من الصور نفسها ويذهبون إلى الأفكار نفسها». ولكنه يريد أن يبتعد عن «التحليل النفسي الكلاسيكي»: فمادة باشلار ليست «مصابة بالعصاب النفسي»، ذلك لأن الكبت بالنسبة إليه نشاط ليس طبيعياً فقط، ولكنه «مبهج» أيضاً، فالتحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يسمح بمعرفة الخطأ في الجبور: «وحيث تلد المتعة الروحية الصافية». وإننا لنصل هنا إلى «المعرفة الموضوعية للذاتي»، وإلى اكتشاف «الجدل المتسامي» الذي يلد من «الكبت المنظم»، وهكذا، فإن هذا الكتاب الأول «ليعد العدة من أجل نقد أدبي موضوعي» يشكل نسقاً و«نحواً»: يقدم كل شاعر تركيباً من الصور نستطيع أن نكتشفه «بعد حين»، وإن هذا الأمر ليكون في رسم «مخطط بياني»، والعثور مجدداً على منطق، ولكنه لن يكون في سطحية الرسم، ذلك لأنه ثمة جدل لحلم اليقظة، وإنه ليكون في المكان نفسه الذي «ينقسم فيه الاندفاع الأصلي»: «ويستطيع الكائن المحب أن يكون صافياً حينئذ، كما يستطيع أن يكون محتدماً، ومفرداً، وكونياً، ومأساوياً، ووفياً، وأنياً، ودائماً». وهذا يعني أنه «النفسية المبدعة».

وقد كرس باشلار في السنة التالية دراسة عن لوتريامون الذي اكتشفه السوراليون، وبهذا يكون قد صنع دخوله الحقيقي إلى النقد الأدبي وسجل الافتتاح هدفه المضاعف: تجلّى ذلك في تحديد «القوة المخيفة للعلاقات الزمانية»، وفي استخراج «التركيب في الحياة الحيوانية» و«الطاقة العدوانية»: إن «أغاني مالدورور» تمثل عدواناً خالصاً. فالكتاب يريد أن يكون «تحليلاً نفسياً للحياة». ولذا، فقد كان المنهج يقضي بجمع إشارات الاعتداء التي هي: الحيوانات، والمنمسخات الحركية (والتي تتعارض مع تلك التي صنعها كافكا مصابة بإغماء تخشبي). ومن هنا، كانت إرادة القوة عند لوتريامون. ويقترح باشلار سبر «التعقيدات الثقافية» (فوق الطبقة البدائية التي سبرها التحليل النفسي الفرويدي)،

ومن ذلك مثلاً حياة ديكاس المدرسية والتي تتركز نفسياً «ضد الطفل والربوبية». وعندما يلامس باشلار قضية السيرة الذاتية فإنه يرفض الاتهام بالجنون، وذلك لكي «يحيي الثقة الكلامية للعمل، والتماسك الرنان»، ولكي يدل على التحرير الذي أدته الكتابة: «فما أن يستطيع ذهن أن ينوع ملفوظه حتى يصبح له سيراً [...]». ولقد استطاع لوتريامون أن يهيمن على استيهاماته. «ألا وإن عمل لوتريامون لغريب، ولكن ليس حياته: فقضايا علم النفس يجب أن تطرح من خلال العمل، الذي هو سلبي إزاء الحياة، ويعيش قطيعة معها. وإن منهج باشلار ليقوم إذن على العثور على القوة النفسية في اللغة. فإذا كانت الكلمة مركزة على «اللحظة العدوانية»، فإن «الجملة يجب أن تصبح ترسيمة لدوافع متلونة». وبهذا يكون الفعل في الحاضر بدلاً من أن يتأثر بتاريخ اللغة ويعيد قول، كما هي حال ليكون دي ليسل، صدى ضعيف في الأغلب، أو يعيد أصوات بطولات ماضٍ موهوم دائماً. فلقد كشفت لغة العمل «تركيب لوتريامون». وإن هذا الأخير الذي حرر الشعر من الوصف، ليعيدنا إلى الحرية. ولذا، فإن باشلار قرأ «مالدورور» كما يقرأ قصيدة عدوانية، وذلك حين وصل موضوعات، ورموزاً، وكلمات مفتاحية. غير أنه لا يكفي بهذا المعنى، لأنه أي قراءة بالنسبة إليه يجب أن تغير القارئ: إنه لمن الواجب تجاوز لوتريامون، وتحويل «قوته التوسعية» إلى «مشروع شعري يفتح الخيال فعلاً».

كرس باشلار أيضاً أربعة كتب عن خيار المادة. فلقد وجد العناصر الأربعة التي كان الفكر القديم يضعها «في أساس كل شيء»، تماماً كما لو أن غيبة وعي تاريخي توجد في الماضي. ولهما المجلدان الأكثر كمالاتاً في هذه السلسلة، منهما اللذان يبحثان في الأرض. وإن الإجراء ليقراً هنا قراءة أفضل. أولاً، ثمة قراءة عامودية: «فنحن لسنا سوى قارئ، قارئ، وإنا لنمضي ساعات، وأياماً نقرأ كتباً

قراءة بطيئة وسطراً سطرأً. ونقاوم قدر المستطاع جذب الحكايات (أي نقاوم الجزء الواعي بوضوح من الكتب)، وذلك لكي نكون متأكدين من إقامتنا في الصور الجديدة، وفي الصور التي تجدد النماذج المثالية غير الواعية». فالصورة الأدبية تجدد الصورة الأساسية، وإنما لقتنوع تنوع الموضوع الذي يعطيه النموذج المثالي. ولكن هذا التماس الذي يقيمه الناقد يكشف من غير رحمة عن الرواسم، وعن الصور المزورة، وعن القيم غير الصحيحة: «إن شعر المحراث النمطي ليغطي كثيراً من القيم. وإن هذا ليدعو إلى ضرورة وجود تحليل نفسي لكي يتخلص الأدب من هؤلاء الحراثين المزورين». ويجب أن نفهم، من جهة أخرى، أن الصورة بالنسبة إلى باشلار، ليست صورة بلاغية، ولا جزئية نصية. إنها موضوع لما هو كلي. وإنما لدعو الانطباعات الأكثر تنوعاً إلى الاتفاق، تلك الانطباعات التي تأتي من معاني عديدة»، وإنما أيضاً ليست تركيباً «بين مقاطع لواقع ملاحظ، ولا بين ذكريات لواقع معاش»، كما هي الحال في الثقافة والنقد الواقعيين: فالفنان الباشلاري ليس هو ذلك الإنسان الذي لاحظ جيداً، ولكنه ذلك الذي حلم جيداً. فالصورة ضمن النص إنما هي أثر من آثار الوظيفة غير الواقعية. وإنما لتسبق الملاحظة لأنها سمو نموذج مثالي وليست «إنتاجاً للواقع». وفي اللحظة التي كان باشلار يكتب فيها «الأرض وأحلام يقظة الإرادة»، كان يقترب من يونغ، ولكن قوله كان مختلفاً: إنهم كثر أولئك المؤلفين (بتيجان، كايوا، روبنل، ديزواي) الذين غير وجهتهم، ونقلهم من أماكنهم، وجعل التعرف عليهم غير ميسور، خاصة وأنه كان يستشهد بهم بأمانة، وسذاجة، وذلك لكي يجعلهم يؤدون واجباً جديداً.

وثمة خطأ آخر يجب ألا يرتكب، وهو الاعتقاد بأن باشلار كان مهووساً بالمضامين وغير مهتم باللغة: فكما أبان لوتريامون (انطلاقاً من أربعمئة كلمة حيوانية)، فإن الصورة الأدبية «تقول مالا يمكن تخيله مرتين». إنها تبدع لغة ضمن

حركة فعالة تعبر عن الطاقة النفسية. ولقد كان العصر يفرض هذا البحث عن الصورة. وإذا كان يجب دراستها في الأدب - لأن العناصر الباشلارية لا توجد في الحياة، ولكن في الكتب، فلأنها تعود إلى أصل اللغة والخيال، وترجم الفضاء الشعوري المكثف داخل الأشياء». فالمادة القاسية، والمادة اللينة، والمادة المتخلفة، كلها أيضاً مضامين للصور ولكنها مضامين للحركة كذلك: إنها موضوع السقوط، أو النضال ضد الجاذبية، وضد التوترات الجدلية: إنها مادة مضطربة تحت سطح هادئ، فعندما يمر باشلار على صور الملجأ (البيت، البطن، الكهف)، فإنه لا يكتفي «بالعودة إلى الأم»، إنه يقلب الإجراء. فبدل أن يصعد إلى المنابع النفسية العميقة أو غير الواعية، فإنه يفضل أن يصعد «تطوره من خلال صور متعددة».

يجب أن نشير إذن إلى الاختلاف مع التحليل النفسي، فالرمز في التحليل النفسي عبارة عن «متصور جنسي»: بينما «الصورة فشيء آخر. فالصورة وظيفة أكثر فعالية. ولها معنى في الحياة غير الواعية وإنها لتشير من غير ريب إلى غرائز عميقة، ولكنها أيضاً تعيش من حاجة إيجابية للتحليل. وإنها لتستطيع جدلياً أن تكون أداة للإخفاء وللظهور. ولكن يجب أن يكون الإظهار كثيراً لكي نخفي قليلاً. ولذا علينا أن ندرس الخيال من جانب هذا الإظهار الهائل». وإننا، هنا، نلتقي القارئ الذي يؤثر النص فيه. «ففي اللحظة التي تطلق فيها حرية التعبير في الكاتب قوى معقدة، فإنها تميل إلى تثبيت صور داخلية عند القارئ مثبتة في الكلمات». إذ بها يسقط الكاتب نفسه والقارئ معه في الأشياء، ولكن اللاوعي، وطفولة الكاتب ، وعقدة أوديب لم تعد تهم باشلار. فقد كان قريباً من مارلو أكثر من قرينه من فرويد أو حتى من يونغ.

وعندما ظهر بعد ذلك بتسع سنوات كتاب «شعرية المكان»، ظننا أن باشلار يقترح منهجاً ثانياً: لقد حلت ظاهرية الصور محل تحليل العناصر. ولكن القطيعة



كانت أقل كبراً مما بدت، فلقد انتهت، بالإضافة إلى «شعرية أحلام اليقظة» (1960)، إلى استعادة جديدة «الأرض وأحلام يقظة الإرادة»، إذ ربما كان المقصود هو وضع الحق في علاقة مع الوقائع، ووضع المبادئ في علاقة مع الممارسة. وقد كان باشلار يعني بظاهرية الخيال «دراسة ظاهرة الخيال الشعري، وذلك عندما تنبثق الصورة في الوعي بوصفها إنتاجاً مباشراً للقلب، وللروح، وللكائن، وللإنسان كما هو مُستحوذ في راهنه». فليس ثمة ماضٍ للصورة، ولكن ثمة مستقبل لها. إذن، ليس ثمة سببية مع «نموذج مثالي يهيمن على عمق الوعي»، وليس ثمة تفسير لوجود «الزهرة بسبب السماء». وهو إذ يعاود تناول متصور السمو الذي يعالجه منذ كتابة «النار في التحليل النفسي»، فإن الناقد يرى فيه البرهان بأن الشعر «ينوف على علم نفس الروح الحزينة أرضاً». فالظاهرية لا تصف بشكل تجريبي الظواهر الشعرية. وإن هذا الأمر ليفترض وجود قارئ سلبي؛ فهي تعيش «القصيدة الشعرية». ويجد هذا المستقبل للقصد نفسه مقروءاً في «الرنان». فهو يشكل الاختلاف الرئيس مع المؤلفات الموضوعية عن خيال المادة. ففعل الخيال في «أرواح أخرى» لا يمكن أن يفسره وصف موضوعي؛ فالظاهرية وحدها - أي النظر في انطلاق الروح ضمن وعي فردي - تستطيع أن تساعدنا في إعادة تشكيل ذاتية الصور، وقياس السعة، والقوة، ومعنى التحول الذاتي للصورة». فالصورة توحد بين «ذاتية مجردة ولكنها زائلة» وبين واقع غير مكتمل تماماً في بعض المرات، وذلك بشكل تكون فيه قبل الفكر «أصلاً للغة».

لا تحلل إذن الظاهرية الباشلارية شيئاً، ولكنها تحلل الرنين، كما أنها لا تحلل التكرار، ولكنها تحلل ظاهرة فريدة، لا يعدها أي شيء. إلا أنها مع ذلك، تدع جانباً «تأليف القصيدة بوصفها تجمعاً من الصور المتعددة»، وذلك لكي لا تهدم صفاء الملاحظة البدائية ببرنامج واسع جداً. ويقترب القارئ، بهذا الشرط، من فرح

الكتابة، كما لو كان «شبح الكاتب» وحرته. وليس لنا إذن أن نبرر الصورة أولاً بمجموع القصيدة (أو العمل)، ولا بالواقع المحسوس، ولكن بالبقاء في «فضاء لغوي»، شكلته، وحددته الصورة، أو الجملة، أو البيت الشعري الذي يتضمنه». أما ما يخص اشتراك الصور، فتلك «مهمة ثانوية». وإن هذا يعني إذن أن النقد الباشلاري يحدد الوحدة الصغرى للشعر (أي للأدب، وذلك لأن النصوص النثرية غير مستبعدة) بوصفها موضوعاً واحداً لدراسته. وهذا ما كان السوراليون يضعونه في المقام الأول: إنها «الصورة المخيفة» كما كان يقول بريتون. ولقد كان الإمساك بهذه الوحدة يتم في انبثاقها في العلاقة الواحدة التي تقيمها مع الذات المبدعة لها: بأنها «أصل مطلق»، يجب على أن يشترك فيه، وذلك بكتابتها حلم يقظة الفنان. وهكذا يعلق باشلار على فونتين («السما كائنة فوق السطح»): «في السجن من ذا الذي لا يكون في سجن الساعات المأساوية؟ فأنا في غرفتي الباريزية، بعيداً عن بلدي الأم، أقود حلم اليقظة: لفيرليني. وسما الماضي تنتشر فوق مدينة الحجر. وتغني في ذاكرتي للمقاطع الموسيقية التي كتبتها رينالدوها من على قصائد فيرلين. وكثافة من الانفعالات، وأحلام اليقظة، والذكريات تنمو من أجلي فوق هذه القصيدة. وأقول فوق -وليس تحت، ولا في حياة لم أعشها- وليس في حياة سيئة عاشها الشاعر البائس. ولكن العمل في نفسه ومن أجل نفسه، ألم يهيمن. على الحياة، ألم يكن العمل مفخرة بالنسبة إلى ذلك الذي عاش حياة سيئة؟ إن النقد الباشلاري يعيد إذن تشكيل اكتشاف العالم، العالم الذي تريد روح الفنان أن تعيش فيه، انطلاقاً من الصورة.

## Jean Pierre Richard

سيفكر المرء بأن موهبة الكاتب باشـلار وحدها تعطي حياة لمنهجـه، وهو منهج بالنسبة إلى الآخرين، لن يتعدى كونه شرحاً

جان بيير  
ريشارد

2

أو منوعات، لو لا أنه يستحوذ على عدد من الأتباع اللامعين. ولقد نجد في المقام الأول جان بيير ريشار (ولد عام 1922) ، وأنه لينتمي، في كتابه الأول «أدب و إحساس» (1945)، إلى الوعي النقدي (كما أشار جورج بوليه إلى ذلك في مقدمته)، «ففي الأشياء، وبين البشر، وفي قلب الإحساس، والرغبة أو اللقاء، تُمتحن بعض الموضوعات الأساسية، تلك الموضوعات التي تنظم أيضاً الحياة الأكثر سرية، وتأمل الزمن، والموت». فكل تحليل لتفصيل من التفصيلات يحيل إلى مجموع الوصف، وكل تعددية في الأحاسيس تحيل إلى بنية وحيدة، أي إلى الكاتب وليس الوعي مع ذلك فهذا ليس معطى سابقاً، ولكنه وعي يبني نفسه وهو «يغير الحياة»، ويكتشف «عالمًا نكون فيه في العالم فعلاً». وهكذا، فإننا نكتشف استبدال وقد انقسم بين المعرفة والحنان، ونكتشف فلوبير وقد غزته المادة، ولكنه مبدع للشكل، ونكتشف فرومانتان وقد قهره المشهد، كما نكتشف «كاتبين متعلقين بالبشرة: إدمون وجبل غونكور»، ويكتشف ريشار فجأة، بالنسبة إلى القراء في عام 1945، موضوعات لم ينشغل النقد الرسمي بها، وأهملتها الجامعة. وإننا لنجد من ذلك مثلاً الأكل الفلوبيري، إنه الهوى في ابتلاع الكل، من غير شبع، ويتبع الغيثان

ذلك، ثم يكون «الاتحاد مع مالا شكل له» كما نجد دوخة التحول وإغواء القديس أنطوان لبوفار وبيكوشيه. «قالبطل الفلوبيري يشيخ في قوضى انقطاع تحولاته»، وإننا لنجد أيضاً العلاقة بين الرسم الانطباعي الذي يفكك الإحساس الكلي «إلى عدد من الإحساسات الصغيرة المجردة والمتباينة»، وبين المشاهد الفلوبيرية المبرقشة «حيث العين تجري بين انعكاس ضوئي وآخر»، فإذا كان الوجود مشتقاً، فإن الكتابة «تركز في نقطة واحدة كل الصلابة المتراكمة ببطء والمنقشرة بتوسع في كل أطراف الفضاء والزمان». ولذا، يصنع عمل فلوبير الأسلوب «صلابة تدريجية»، «فيسيل الشكل على استمرارية اللاشكل». وهكذا نحول بالأسلوب الإحساس المادي. ولكن دراسة الإحساس ضرورية، وذلك لأنها مادة العمل، أي مادة عمل صير إلى امتلاكه ثنائية في إطار كليته، ولم يكن ريشار ليميز أكثر من باشلار (أو بوليه) بين كتب الكاتب نفسه، إذ إن الأمر يكون كما لو أن ستاندال، أو فلوبير، لم يكتبوا سوى كتاب وحيد. وتتجه الغاية إلى إعادة تنظيمه بكسر سطحه العقلاني. والناقد يجد ثنائية، أو يعيد بناء بنية إحساس، وطريقة وجود في العالم، كما يعيد بناء «تناغم عميق» «تحت تفكك ظاهر». وإنه لمن المؤكد أن ريشار قد تأثر، في «عودته إلى الواقع العملي»، بفلسفة غابرييل مارسيل، وجان واهل، وميرلو بونتي. فلقد رأى عند هذا الأخير «فكراً سابقاً على التفكير، يفتح الطريق أمام تحليل نفسي للإحساس والعلاقة» («بعض الجوانب الجديدة في النقد الأدبي في فرنسا»، الفرنسية في العالم، مارس 1963). ولكن بينما كان باشلار (باستثناء لوتريامون) يخلط كل الكتاب في خطاب وحيد، كان ريشار يحترم الأفراد، ووحدة الوجود. وكان لا يتتبع نظام تعاقب الأشياء، ولكنه كان يبني الجدول : فليس النظام الظاهر للحياة، ولا نظام العمل يمثلان «النظام الحقيقي»، ذلك لأن «التقدم الداخلي» للوجود ذو طبيعة منطقية، ويعرض نفسه في نسق.

إن دراسته «شعر وعمق» لتعود كذلك «إلى اللحظة الأولى للإبداع الأدبي : وإنها للحظة يلد فيها العمل من الصمت الذي يسبقه ويحمله ( ... )، حيث الكاتب يرى صوته، ويلامس نفسه، ويقودها هو بذاته إلى اتصال بادي بإبداعه.

وأخيراً، إنها لحظة يأخذ فيها العالم معنى بوساطة الفعل الذي يصفه...»، فالأدب هو المكان الذي يُترجم فيه «جهد الوعي من أجل الإمساك بالكائن»، وإنه لعلاقة مع العالم الذي يتصور ريشار «سعيداً» من خلال مزاج شخصي، ويأتي دور الشعراء بعد الروائيين: غيرخال، بودلير، رامبو، فيرلين. والمحاولة أكثر خطراً، ذلك لأن تحطيم وحدة القصيدة يعد أكثر فداحة من تحطيم وحدة الرواية، فريشار يريد أن يقبض عند هؤلاء على مشروعهم المركزي وذلك على مستوى «الإحساس البحت»، الإحساس الذي أطاله حلم اليقظة واستبطنه، ويشيد ريشار إلى أنه مدين بهذا إلى باشلار، فلعمل الشعراء «تماسك داخلي»، ويقع على عاتق القراءة الإمساك به: «إن فيرفال مثلاً ليحلم بالكائن كما لو أنه نار ضائعة، ومكتومة؛ وإنه ليبحت أيضاً وفي الوقت نفسه عن مشهد الشموس في إشراقها وعن مشهد الأجر الزهري الذي يلمع تحت شمس المغيب، وعن ملامسة صغيرة الصبايا الملتهبة أو عن الشقرة الدافئة للحومهم البضة». ويدل هذا أن عدداً من المنظورات محتمل وهذا الكتاب يختار منها «العمق» بوصفه «تجربة الهاوية». ولقد نعلم ميل بودلير الذي قام بنجامان فودان بسبره) إلى الهاوية. وإننا لنعلم على العكس من ذلك أن رامبو ينكر العمق من أجل إنشاء عالم لاشيء «تحتّه»، وإنه ليتخذ من «الانفجار، والطيران، والقذف، والتحول، والتمرد» إلى ذلك سبيلاً، بينما نجد أن العمق لايعني بالنسبة إلى فيرلين سوى الفراغ، و«الغموض المحض». ومع ذلك، فإن الناقد لايقف غير مبال باللغة. فلقد كرس للغة بودلير صفحات جميلة (شعر وعمق. ص 159-162): «كيف يمكن الاعتقاد بأن هذه الحياة لم تكن حياة ناجية في حين أنه

كان قد وهبها مآلاً كاملاً إلى بعض الجمل؟».

إن لغة هيرفال الساكنة، وإن الفعل المبني للمجهول واسم الإشارة «هذا» عند فيرلين (إن فيرلين «يعيش على عالم المجهول»، «نصف مستقلب» بين ما هو شخصي وغير شخصي)، وإن زواج «الانجاس» و«الشكل» عند رامبو، ليظهر أن الإحساس يعبر عن نفسه بالكلمات. حتى وإن كان بإمكاننا أن نجد أن هذا المنهج يخرأ لها إلى حين المطابقة.

لقد نشر جان بيبير ريشار في عام 1961 أطروحته عن «العالم المتخيل عند مالارميه» في الوقت الذي نشر فيه قصائد غير مطبوعة للشاعر عن موت ابنه (من أجل قبر لأناتول). وإنها لفرصة لكي يحدد في المدخل المنهج القائم كلية على مفهوم «المضمون»، فالموضوع، بحسب تعريف مستوى من مستويات ملارميه الأعمال الكاملة، مكتبة البلياء، ص 962)، هو «مبدأ واقعي للتنظيم، وترسيمة أو شيء، ثابت من حوله يميل العالم نحو انبثائه وانتشاره»، ويتم الاكتشاف «بوساطة معيار التكرار»، ذلك لأن التكرار يدل على الاستحواذ، غير أن الكم لا يكفي؛ إذ يمكن للموضوع أن يعبر عن نفسه بكلمات مختلفة. وأما معنى الكلمات فيتغير بتغير استعمالاتها، «فالعاني، في الاتجاه القائم على الموضوع، لا توجد إلا بشكل إجمالي ومتعدد في تكافؤ عناصره، وعلى هيئة كوكبة»، ومن هنا، فإن المواضيع، على افتراض وجود قائمة بها، لا تكفي، ذلك لأنها لن تكشف عن تنظيم النسق، ولا «دوي المعني». وكما هي الحال عند باشلار، فإن معرفة اللحظات القوية للنص إنما تنس على الدوي، أي على المراقب. الذي تعرف العلوم الآن، حتى الدقيقة منها، ككانته. وثمة معيار آخر جدير بالموقف عنده. هذا المعيار هو مكان الموضوع في تقاطع عدد من مستويات التجربة: «فالعري» عند مالارميه، يحيل إلى الإشارة الجنسية، ولكنه يحيل أيضاً إلى «حلم اليقظة الجمالي والميتافيزيقي»، كما يحيل

إلى الفكر. وهذا يعني إذن أن الموضوع يسمح بالطواف في مختلف مستويات التجربة (الانبجاس مثلاً) وبشكل رأسي. ويمكن القول أخيراً، إن الموضوع إذ يتناسق مع مواضيع أخرى في مجموعات، يشكل تعادلاً، وأساساً متعددة، وذلك بوساطة ثنائيات متضادة (مثل «المغلق والمفتوح، الواضح والهارب»).

ويمكن الوقوف على الموضوع أيضاً بوصفه رمزاً: فالأبيض عند مالارميه يحيل إلى البكارة، وإلى العقبة، وإلى البرودة الجنسية، أو إنه يحيل إلى الحرية. وإن المرء يستطيع بالعدوى أن يمر من رمز إلى آخر: «من اللازوردي إلى الزجاج، إلى الورقة البيضاء، إلى الجليد، إلى القمة المغطاة بالثلوج، إلى الأذن، إلى الجناح، إلى السقف». وتمثل صورة «الثنية» في وقت واحد «الجنس، ورق الشجر، المرأة، الكتاب، القبر». رؤيتها لتجتمع كلها في حلم من أحلام «الألفة». ومن المؤكد أن هذه المواضيع، وهذه الأساطير، وهذه الرموز لتوجد خارجاً قبل وجود الفنان؛ ولكن ريشار يريد أن يعرف، ليس كيف مالارميه «استقبل هذه الصور»، ولكن كيف أعاد أخذها في حسبانها. ذلك لأن أصالة تجربة ما لا ترتبها إلى أصالة عناصرها، ولكن إلى أصالة «تنظيمها أو كما يقول مالارميه، إلى «تناسقها المنطقي». (الأعمال الكاملة، ص 902) - غير أن هذا النظام كما يرى ريشار (أو كما يرى مالارميه) لعلقة له ببنية العمل كما يدرسها الشكلايون، إنها على العكس من ذلك، تهدم البنية. «فالشكل المعزول» (كالسونية، والرباعية، وقصيدة النثر، إلى آخره) يجد نفسه «غارقاً في نوع من التتابع الدال هو العمل»، ولكن هذا التعميم يسمح «بفهم وتبرير الشكل الذي يبدو أنه يلفيه»، وإنه ليجد الضرورة العميقة، أو الكيفية التي تبرر بها التجربة الحساسة الشكل. ولذا، فقد كان الأسلوب هو النظام غير الواعي للتجربة، إنه النظام الذي تم الحلم به ثم إلى تحقيقه. ويزعم الإجراء النقدي لجان بيير ريشار

أنه يعطي للأشكال أساساً، و«كرامة جديدة» وذلك بوصفها مع «مشروع إنساني». وأما فيما يخص تسلسل الأحداث، ونظام ظهور المواضيع وغايتها، فإن منهج ريشار كان قليل الحساسية إزاءها. فهو يعطي الأولوية إلى «الاستمرار»، مع احتمال استدعاء مصادفة من نوع المعجزة بين الأنية والتعاقبية، وذلك عندما «يحترم التتابع الخارجي للعمل (...) التقدم الحميمي لعناه». وهكذا، فإن المقصود هو متابعة الانتشار، وهذا يعني متابعة تقدم الوعي. ولكن كيف يمكن للمرء أن يتأكد أنه لم يخطئ إلا إذا رأى أن «التماسك الداخلي» للتحليل هو «المعيار الوحيد والصحيح للموضوعية»، وأن هذا التماسك «لن يغطي أبداً كل المادة الأدبية موضوع السبر؟». ولذا لا يستطيع الناقد اليوم إلا أن يكون «جزئياً، وافتراضياً، ووقتياً»، ويعكس هذا الحالة «المنفجرة لأدبنا ومجتمعنا». ولقد نرى أن ريشار قد توقع في البيان التام الذي يكون المدخل إلى كتابه «مالارميه»، المثالب التي سيوجهها إليه بعضهم. وأنه ليبدو لنا مع ذلك، أن «التماسك الداخلي» للعمل النقدي لا يصنع برهاناً آخر قدر ما يصنعه لنوعيته العقلية الذاتية والأدبية. وإن البرهان الحقيقي ليبقى في مواجهة العمل المحلل. وإزاء النقاد الآخرين، وإن كتاب ريشار «مالارميه»، الفعال، والمرح، والمضيء، ليصمد منتصباً في جدته: فالبياض يفضي إلى الوجد الملتهب، والليل والموت فقد صير إلى تجاوزهما نحو النهار. وإذا كان العمل يبدو مظلماً، فذلك لأننا لانعرف أن نقرأ نور الوعي فيه، فإما أن نقبل المسيرة المقترحة علينا مع هيمنة أسلوبية عظمى، وإما أن نعكسها.

إن ريشار، في كتابه «إحدى عشرة دراسة عن الشعر الحديث» (1964)، ليثب على الميدان نفسه الذي وثب عليه فريديريخ، ولكنه يقوم بدراسة أحادية الموضوع لكل من: ريفيردي، سان جون بيرس، شار، إلوار، شيهاردي، بونج، جيلفيك،



بونفوا ، دي بوشيه، جاكوتيه، ديبان. وإن الوحدة لتوجد في المنهج: «إن كل هؤلاء الشعراء قد تم تناولهم على مستوى الاتصال الأصلي مع الأشياء». فلكل واحد عالمه المتخيل، وإنه ليصنع منه الانطباعات وأحلام اليقظة. ومع ذلك فإن للشعر الحديث سمة مشتركة. إنه يبحث عن «إبداع المعنى» وهو يعبر «اللامعنى»، ولقد وجد ريشار تعبيراُ لبيفان، فقرأ فيه «إشكالية مشتهة للحضور» وذلك في بعض الصور، ولكن التعبير في هذا الشعر يكون في الوقت نفسه في صراع مع مضمون الموضوع. ومع ذلك، فإن الناقد يختار مرة أخرى تماسك الموضوعات (مع احتمال تسميتها «الأشكال الموضوعاتية») بدلاً من اختيار انقطاع اللغة، متخذاً إلى حجة واهية إلى حد ما («إن الأدوات هي التي لاتزال تنقصنا . أولاً صوتيات الإشارة، والأسلوبية البنوية. فهذه الأدوات هي التي تسمح لنا أن نتكلم بشكل جدي»). فريشار يدرس عدد بونفوا مثلاً «الصور المضادة للمتصور»، و«النماذج العليا للنهضة»، مثل: السكيرة، والعنقاء، والسمندل. كما يدرس صور الانحصار مثل: المشعل، والبرد، والسيوف في الحجر. ثم يدرس الانبثاق، والإنعاش، والاشتعال. وإنه ليدرس أخيراً إيقاع الزمن، و«الدورة التامة والمعادة دائماً».

وإننا لنرى إذن مشهداً يتمثل لكل كاتب من الكتاب. وهذا هو العنوان الذي يأخذ أحد أفضل كتب ريشار «مشهد شاتوبريان»، وإنه ليمثل «نسق الموضوعات الرمزية لحياة ما» (ص 175). وهكذا نجد أن الناقد يفصح بالتناوب عن الموضوعات الكبرى: «الموت وصوره»، الوحش والمقدس، الاستفزان، التدفق، «الترجيع»، «أحجام الزمن»، «الحكاية الممزقة» (وإنه ليسجل، على كل حال، ابتعاده عن النقد العلمي والجامعي، فلا يعطي السيرة مع احتمال ذكر مدام ديري، ومورو، وفيال، وغيومان في متن النص). وإنه ليبدو مع ذلك أكثر حساسية إزاء ضرورة تحليل اللغة في فصلين هما: «البلاغة والوجود» (حيث يدرس ألعاب الزمان

والمكان: زمن واحد وأمكنة متعددة، فكان واحداً وأزمنة متعددة، إلى آخره)، وفي «الحياة والكتابة». ويرى ريشار عند شاتوبريان كتابة أخذة في التوسع، ولكنها تتجه نحو الفناء والموت (ويمكن للمرء أن يعترض بأن قليلاً من الكتاب قد أحيوا هذا الكم من المشاهد والبشر). وتتلو دراسة شاتوبريان «دراسة الرومانسية» (1971)، وعن «بروست والعالم المحسوس» (1974)، وإننا لنظن أننا نجد في كتابه الأخير هذا انفتاحاً على مناهج أخرى؛ ومن هذا القبيل نجد علم النفس الذي عاب مورون على ريشار أنه لم يستعمله، أو البلاغة، بينما هما داخلان في حسابه بإلحاح أكبر. وإن هذا الاتجاه ليتأكد في كتابه «القراءات الصغرى» (1979)؛ فلقد تغير أثناء ذلك الأفق النقدي تغيراً عميقاً، وهيمن الخيال النقدي من غير اعتراض من عام 1960/ إلى عام 1970/. ولكن في نهاية الستينات، جاءت موجة اللسانيات على كل شيء، وأخذ الدال مكانة أكبر من المدلول. وأوشك أول نقد لريشار الا يظهر لا بوصفه تحليلاً ذاتياً للمضمون. وهكذا فإن «القراءات الصغرى» (كما هي الحال بالنسبة إلى المجلد الذي سيتبعها). لتذكرنا بجهد ستغافانسكي من أجل كتابة الموسيقى المتسلسلة: فبين الوفاء لمنهج تنظر إليه الدرجة الشائعة من غير حق بوصفه عتيقاً، وبين الرغبة في الأنية على حساب الأصالة والصوت الشخصي، فإن هذا الاختيار الذي قُرض على كثير من الفنانين، والعلماء، والنقاد، قد كان قاسياً.

تدرس القراءات الصغرى وحدات صغيرة: الحافز (نجمة أبولينير)، المشهد، قطعة مختارة (هيجو، كلوديل، غراك)، كلمة، فعلاً من الأفعال (مثلاً ركوب المترو) عند سيلين)، عنواناً (أنايان، لسان جون بيرس مضافاً إلى الاسم المستعار). وإن الأمر ليكون دائماً على مشهد، ولكنه الآن مختزل ومعمق، وذلك لأنه معروف بوصفه استيهاماً، أي «انتاج رغبة غير واعية». فريشار يكتشف الغريزة الجنسية تحت

الإحساسات. وثمة فرويد تحت ميرلويونتي (أو ثمة فرويديون: لوكير، لابانش،  
موزان، روزولاتو، علي، وآخرون تم ذكرهم بكثرة في الصفحة 8)، وثمة الجسد  
تحت الروح، وثمة شبح بارت تحت كل ما تبقى.

## Gilbert Durand

ولد في 1921

لقد كان جيلبير ديراند كما كان جان بيير ريشارد  
تلميذاً من تلاميذ غاستون باشلار، وخاصة في  
أول كتابية: «البنى الأنثروبولوجية للخيال» (1960)،

جيلبير  
ديراند

3

و«الاطار الأسطوري» لرواية: La chartreuse de Parme (1961). ولقد غادر  
شيئاً فشيئاً ميدان الخيال المادي لكي يقيم نقداً للأساطير، وهو «نقد اسطوري»  
تشهد عليه مجموعة بحوثه لعام 1979، مثل: «الصور الأسطورية»، و«وجوه العمل»  
و«من الأسطورة النقدية إلى الأسطورة التحليلية».

ويشكل أول أعماله «البنى الأنثروبولوجية للخيال» الأساس الفلسفي للنسق.  
فالخيال يعطي قيمته للفعل: فالمرء يحيا ويعطي حياته، وإنه لايعطيها «من أجل  
اليقينيات الموضوعية، ولا من أجل الأشياء، أو البيوت والثروات، ولكن من أجل  
الآراء، ومن أجل هذا الرابط السري والخفي الذي يربط ويعيد ربط العالم والأشياء  
في قلب الوعي. وإن المرء لايعيا ولايموت فقط من أجل الأفكار، ولكن موت البشر  
غفران علني عام تقدمه الصور». وإن ديراند لقيم من أجل هذا بشكل افتراضي،  
«معجماً عملياً من البنى»، وفهرساً «لكوكبة نجوم خيالية عظيمة»، يجب أن تطبق  
على كل العلوم الإنسانية، وليس فقط على علم الأدب، وإن ديراند لم يختار لاجانب  
الحوافز الموضوعية، كما هو باشلار إذ كان محلاً نفسياً للمادة، ولا الغرائز  
الجنسية الذاتية، كما هي حال أتباع فرويد. فلقد اهتم «بالذهاب والإياب غير

المنقطعين» بين محركي الخيال. ولكي يقود دراسته، فإنه لم يقف عند الخيالات المعزولة، ولكنه وقف عند نظامها الكوكبي: «تصاحب الرموز المضيئة الترسيمات التصاعدية دائماً. وهي رموز مثل الهالة والعين». وإن نظام العرض لا يكون، كما هو معلوم، على غرار ذلك الذي تظهر الصور فيه، والتي يمكنها أن تكون متزامنة. فنحن نعارض النظام الليلي بالنظام النهاري. وإننا لنرى ثلاث إشارات، وثلاث خواص غالبية: أما الأولى فهي «الخاصة الغالبة لوضع الجسم»، وإنها «للتطلب المواد المضيئة، والرئية وتقنيات الفصل، والتطهير ومنها الأسلحة، والسهام، والسيوف، وهي كلها الرموز المتكررة». وأما الإشارة الثانية، «فترتبط بالنزول الهضمي، وتستدعي المواد من العمق». وأما الإشارة الثالثة، فهي إيقاعية وإنها «للتناسب مع الجنس، والفصول، والكواكب، والدورات. وإن هذه الإشارات لتحدد، بواسطة الترسيمات، وهي شبكة الخيال، «النماذج العليا» بالمعنى الذي يعطيه يونغ لها (صورة أصيلة موجودة في اللاوعي). وإنها لتسمى الرموز المتغيرة، والواحدة، والمتبصرة. فالأسطورة إنما هي قصة تجمع الرموز بشكل فعال، كما تجمع النماذج العليا والترسيمات. وإن نظام الأسطورة «ليتناسب غالباً مع كوكبة الصور».

وعوضاً عن الدخول في تفاصيل قاموس الرموز الفعال هذا، والذي يخص الأنثروبولوجيا قبل كل شيء، فإننا سنتابع التطبيق الذي قام به ديراند نفسه على الأدب. وقد كان ذلك أولاً في «الإطار الأسطوري» لرواية La chartreuse de Parme فالناقد يقف، بين الميل الشكلائي وبين الانضواء في الوضع التاريخي أو التحليل النفسي، على النماذج العليا. فالتاريخ، في الواقع، إنما يذهب صعوداً إلى ما لانهاية: قبيل يستلهم من الأريوست ومن تاس، وهما نفسيهما.... «يقف التاريخ عند الأسطورة، كما أن الأسطورة تحيي التاريخ وتحيل إليه». فالناقد، أو بالأحرى كما يرى ديراند، فإن الجمالي هو الذي يدرس الأشكال التي يؤثر العمل بها على

الحساسية: إن الناقد يتخذ موقعه قبل ولادة العمل، على حين أن الجمالي يتخذ هذا الموقع بعد ولادته. فالواحد يتعلق «بالكيف»، والآخر بـ «لماذا» اللذة، أو هو يتعلق بالانفعال، وبالعَمق الذي «يجد العمل الأدبي من خلاله صدى في الوعي». وإن ديراند ليميز إذن بين الأدوات التعبيرية و«العَمق الدلالي»، وهو الأمر الذي يمكن ترجمته (إن ليفي ستروس يؤكد أن الأسطورة هي «طريقة الخطاب حيث تكون العبارة : الترجمة خيانة، تميل إلى الصبر عملياً)، وإن البدهية في هذا هي أن العمل الأدبي يؤثر بمعناه من جانب بنى الفهم، أي على النماذج العليا والرموز، «فكل قصة أدبية ستكون، من خلال عمق معناها، قادرة على محاذاة القصة الأسطورية ومحاذاة المناهج التي تسمح باستخلاص البنى الجوهرية للأساطير». ويدخل هنا مفهوم الإطار، فالسحر الوصفي يلامس الخيال فينا. وذلك لأن الإطار هو «ذاتية قابلة للتصميم»، وتستدعي كبرى النماذج العليا. وإننا سنتكلم إذن عن الإطار الأسطوري. ومن هنا نرى في رواية La chartreuse de Parme أن «للجماليات مهمة تفسير البنى الأدبية للروح الروائية عند الجنس الإنساني كله وتصنيعها. والغاية هي أن نجد من وراء ذلك المتصورات والكلمات، وعموميات دوافع السعادة الفنية».

يستند الروائي إلى نظامين متعارضين من أنظمة الخيال: هناك الملحمي الذي يحيل إلى «النماذج العليا وإلى رموز النظام النهاري»، وهناك الصوفي الذي يقوم «على رموز الحميمية، وعلى النماذج العليا للطمأنينة». وإن اللحظة الروائية لتتموضع بين هاتين اللحظتين: فهي تحول بالفعل «المروءات الملحمية ذات القيم المدنية والاجتماعية» إلى داخل الحب وداخل القيم السرية والحميمية التي يخفيها الشعر». فالروائي إنما هو «عبور»، و«موازنة» و«قمة» بين الملحمة والشعر. ويجب أن يكون البحث عن جوهر الروائي في الرموز وفي الأساطير التي يجمل ديراند

نسقها اخذاً رواية La chartreuse مثلاً له. وتخضع حماسة البطل، وهي موضوع الجزء الأول (النظام النهاري) إلى ثلاثة طرق تحرك قدره: الماضي العظيم ومشكلة الأب، القدر (نبوءة الراهب بلانيس)، تكرار البطل (المرشد، المصاحب، المساعد، المؤتمن، المكمل). وأنه يخضع إلى «المواجهة البطولية»، وإلى امتحان المعركة ضد «التنين الأسطوري».

يواجه البطل ثلاثة نماذج من الخصوم. ثمة أولاً المعارض. إنه حارس العتبة الشهير «تيريومورف»، والذي يحيل إلى أسطورة «تيزيه ومينوتور»، وأسطورة «بيرسيه والتنين»، وأسطورة «أورفيه وسيربير»، وأسطورة «أوديب والسفنكس»، كما يحيل إلى أعمال هيرقل. وإن هذه النغمة العدوانية في روايتي «الأحمر والأسود» و «La chartreuse» «تصدر عن «الأب والأصدقاء الأبوين»: «وإن كل السمات لهذا السواد الشيطاني التي جمعها حقد الطفل ستكون بمثابة فهرس لصورة الخصم التقليدي». فجولييان سوريل إنما هو بطل شمسي «يواجه الظلمات المتغضنة لعالم الإصلاح الصاغر والحقير»، وأما فابريس دبل دونغو فيلتقي سواد أبيه وأخيه البكر. وإنها نماذج يقاس بها كل الخونة (السجان باربون، ورجل الضرائب راسي، والمركيز رافيرسي). وإن معركة واترلو ضمن هذا السياق فهي «تدريب على الشجاعة»: فقطس التدريب ينتمي إلى خط سير البطل الأسطوري.

وأما النموذج الثاني للخصم فهو «الذهب المشؤوم»، والثروة الفتانة. فالبطل فقير، مثل جولييان سوريل. والذهب، على العكس من ذلك، في الأسطورة الرومانية والألمانية (ذهب ران)، يؤدي دوراً خطيراً. ففي الأسطورة اليونانية تدفع الجزة الذهبية ميديه لكي يقتل أباه، وتؤدي التفاحة الذهبية إلى حرب طروادة. وهذا هو موضوع سانديريون في الحكايا، وموضوع «الأخت الصغرى البائسة». وإن البطل عند ستانداال ليواجه هو الآخر سطوة الذهب. فجولييان سوريل لا يعاني إلا من

الحقد تجاه المجتمع الراقي حيث هو مقبول فيه («قلب كبير وثروة صغيرة»، إنه عنوان الفصل العاشر). وعندما يلاحظ أن السيدة رينال أخذت تشك «بطمعه»، فإنه يبدأ بجريمته». وأما في رواية La chartreuse، فإن فقر كليلي وفابريس ليتعارض مع البلاط الملكي «حيث كل شيء يُشتري»، كما يتعارض مع سانسيفيرينا حيث تكبر الثروة حيناً، وتندنى إلى العدم حيناً آخر: «إن مخاطر الذهب لتتراقق دائماً في الخرافات والأساطير مع مخاطر الأنوثة القائلة».

وأما النموذج الثالث للخصم، فهو في الواقع سيرسيه، المرأة المشؤومة. ويتجسد الخطر الأنثوي، كما يلاحظ ديراند، في الأسطورة من خلال شكلين: الشكل الأول، وهو المرأة المغوية، وتمثله: دليلا وكالبو. والشكل الثاني، وهو المرأة العدوانية، وتمثله: بانتيذيله، والأمازون. وهما نموذجان يقرأ فيهما التحليل النفسي حضور الأم نفسه. ويمكن أن نضيف إلى ذلك الجنيات السيئات والساحرات في الحكايات الخرافية، وذلك لكي نخلص إلى أن «جنية البحر، والساحرة والمرأة المسترجلة، إنما هي المرأة المشؤومة للطوفان والموت، ولجنون البطل وللقضاء على نسيجه الحي». ومادام الأمر كذلك، فيمكن أن نعارض «عدم القدرة على الحب» لعدد من الأبطال الذكور عند ستانندال مع «المرأة المسترجلة لعدد من الشخصيات الأنثوية»: أهامانس، فانيينا فانييني ماتليد، لاميبيل. فالمرأة المحبوبة «مرهوبة كما لو أنها نداء الهاوية المذهل».

وإذا كانت حماسة البطل تكون، بالبعد الأسطوري، النظام الملحمي للخيال، فإن النظام «الصوفي»، وهو من فتوحات «الغنائية الداخلية»، ليكون موسوماً بانقلاب الملحمي إلى غنائي، والنهارى إلى ليلي: إنها اللحظة الروائية في عصر ستانندال تحديداً، حيث تنبثق «كوكبة الرموز الكبرى ونماذج النظام الليلي العليا للخيال». وهكذا فإن الحميمية تنتصر على المآثر. فالمرأة يعاد إليها اعتبارها، والباطن يعاد



اكتشافه، والحميمية تعاد إليها قيمتها، وهكذا بالنسبة إلى سر الحب، وإن الأسطورتين اللتين توضحان انقلاب البطل هما : أوريديس وجوناس.

توضح أسطورة المراتين رواية ستاندال. فإذا كانت بينيلوب تعترض على كاسو أو على سيرسيه، فإن مريم تعترض على حواء، وإن ماتليد المسترجلة لتقف في مواجهة السيدة رونال العذبة، وكليليا في مواجهة سانسيفيرينا. ومن جهة أخرى، فإن إعادة القيمة للسجن، حيث يجد فابريس السعادة التي تتناسب مع حدائق أرميد عند لوتاس، لتجسد أسطورة جوناس. فإذا ما تحرر البطل فإنه سيكرس نفسه إلى «خفايا الحب»، تحت علامة إيزيس وبسيشييه. وذلك لأن عقدة إيزيس تمثل سر الطبيعية، وعقدة بيسيشييه تمثل سر الحب. والمشهد عند ستاندال مشهد ليلي وبحيري. وهذا الإطار الحميسي إنما هو مكان الحشمة والأسرار. إذن هو مكان عشيقه إيروس. وإننا لنرى كيف أن استعمال الأساطير يسمح لجيلبير ديراند أن يقرأ رواية ستاندال: ثمة مصراعان في جزأين، إنهما خط سير وانقلاب.

لقد اغتنى هذا المنهج وتوسع في «صور أسطورية» وفي «وجوه العمل». وإنه ليؤكد المتابعة بين «السيناريو الدال للأساطير القديمة والترتيب الحديث للقصص الثقافية: الأدب، والفنون الجميلة، والإيديولوجيات، والتواريخ». فالبشر يكررون «الأمر المساوية والأوضاع للأساطير العظمى». إلا وإن للأسطورة قيمة كشفية ومنهجية. وهي إذ ردّ المحللون النفسيون والأنثروبولوجيون إليها قيمتها خلال هذا القرن، فقد غدت «خطاباً أخيراً» و«قصة مؤسّسة». وبهذا يكون «النقد الأسطوري»، كما يرى ديراند، تحليلاً للنص الأسطوري، أو يكون بالأحرى تحليلاً لقصة كامنة تحت القصة، و«ملازمة لمعنى كل قصة». فكما أن للقارئ عالماً أسطورياً، فإن للعمل أيضاً عالماً. وإن المنهج ليشتمل على ثلاث مراحل: «رصد المواضيع» الأسطورية، والأوضاع التي تؤلف بين الشخصيات والإطار، وأخيراً

رصد مواجهة العبر الأسطورية مع الأساطير الأخرى» لعصر أو لفضاء ثقافي محدد». وبذا تتصالح البنية مع التاريخ، وذلك لأن الهندسة الأسطورية للعمل تتقابل ليس فقط مع تعاقبيتها الخاصة (خيط القصة)، ولكن مع العالم المتخيل للقارئ. وإن الأسطورة لتبلى في الواقع، أو هي تتحول سواء كان ذلك عن طريق «تبخر» فكرها، أم عن طريق «تلف الخطاب» لصالح الغايات المتوارية. ومن هنا، فإن الناقد الأسطوري يدرس هذه التحولات تحت أثر «سمة من سمات السجاي الشخصية للمؤلف»، كما يدرسها تحت أثر الوضع التاريخي الثقافي. وإذا كان ذلك كذلك، فإن ديراند يعطي «التحليل الأسطوري» لكل دراسة تتناول «اللحظة الثقافية» و«مجموعاً اجتماعياً محدداً»، وليس فرداً من الأفراد. ذلك لأن التحليل الأسطوري يبحث عن المعنى النفسي والاجتماعي للأساطير (لقد قام فيرنان وديتين بتحليل المضمون الاجتماعي والتاريخي للأساطير)، فيوسع حينئذ النقد الأدبي. ولقد نود أن نذكر مثلاً يخص استخدام الأساطير المصرية: «إنه من القرون الوسطى إلى عصر النهضة، ثم إلى القرن الثامن عشر، كانت أساطير إيزيس، الجدة، الطبيعة، ملجأ يوسف، إلى آخره، هي المفضلة. ففي عصر النهضة، وفي القرن السابع عشر كانت ملحمة أوزيريس / سيرابيس هي المعظمة. وبينما كان القرن الثامن عشر موشكاً على نهايته، كان القرنان التاسع والعشرين خاصة يركزان. ورائعة موزارت تشهد ذلك. على اختبارات المسارة (احتفالات كانت تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة. م)، والموت، والولادة الثانية» (الميتيم يعني «أصغر وحدة دالة من وحدات الخطاب الأسطوري»).

وهكذا نجد أن جيلبير ديراند قد وضع القرن العشرين تحت علامة «عودة هيرميس». ولقد قام بعد تحليله لبودليير بتحليل أعمال كل من هيس، وجيد،

وبروست، وميزانك. أما بودلير الذي كان يعيش قطيعة عصر، فإنه يقارن «بكيمايائي كامل»، و«خيميائي». وقد أعاد إحياء أسطورة هيرميس، وبينما كان خط انحناء الرومانسيين في صعود، ويصف «صعوداً انطلاقاً من السقوط»، وذلك حول أسطورة بروميتيه المبشر بالمسيح، كان بودلير يصف الانفلاق، والهاوية، والموت؛ وهكذا هي نهاية بروميتيه. ولكنه كان يصف أيضاً، من خلال البحث عن الجمال عبر القلق والقبح، تصالح المتضادات. إذن، كان يصف هيرميس الساحر. أما هيس وجيد فلم يلتقيا إلا «تعددية الفراغ»، وهي «كثافة غير متجانسة لديونيوس»، وتمثل «رخاوة بروتيه»؛ ولقد كان خطاب العدم هذا، هو فشل السحر. وعلى العكس من هذا، يجد عمل بروست المتعلق بالنظام الليلي للخيال «الرمزية المغلقة، وأسطورة هيرميس». وإننا لنجد بالفعل في هذه الأسطورة ثلاثة عناصر أو ثلاث وحدات أسطورية صغرى: «قوة الكائن الزهيد»، الوساطة، و«البسبكاغوغ Psychagogue» التي تقود الأرواح من عالم إلى آخر. وإن رواية «البحث عن الزمن الضائع» لتمثل المسارّة. وهكذا، بالنسبة إلى جيلبير ديراند، فإن «فحص النقد الأسطوري للأعمال» يخبرنا عن «الروح الفردية والجماعية». ذلك لأن الفئات والنماذج التي يعطيها الأبطال تسمح بقراءة النص الخاص.

إننا نستعير هذا العنوان من كتاب هيلين  
توزيه الكبير (منشورات كورتني، 1965)، وكما  
كان ديراند، كانت هذه تلميذة لغاستون باشلار،

فلقد سبرت مثله علم نفس الخيال. ولكنها بدلاً من أن تنطلق من العناصر الأربعة  
للفلسفة التي كانت قائمة قبل سقراط، أو من النماذج العليا لليونغ، فقد درست  
لسعة تصميمها العلاقة بين تطور الرؤية العلمية للعالم والخيال عند الشعراء: «إن  
الشعراء أمام المكتشفات الحديثة ليتصرفون بشكل أقل جدة بكثير مما يمكن أن  
نعتقد. فالأشكال المختلفة لتخيل العالم والإحساس به يقود إلى بعض الرؤى  
القديمة، ولعلها لا تقل قدماً عن الإنسانية. فالأساطير القديمة تظهر في لباس جديد.  
وثمة عائلات روحية ارتسمت دائماً على ما كانت عليه. وهناك نماذج من الخيال  
تعطيها مثل هذه الرؤية للعالم أفضلية أو تنغصصها، تبحث عن الوسط الذي يناسبها  
لكي تزدهر. وهناك كذلك جاذبيات خفية تدخل في اللعبة. وفي النهاية، فإن النزوات  
الشعرية، بعيداً عن أن تضع نفسها في خدمة العلم، كانت تستند إلى العلم لكي  
تحدث طفرة في معناها الخاص»، فما هي الاتجاهات التي تحفز لاختيار «رؤية  
إجمالية للعالم؟». إن كل مزاج يتصرف عاطفياً إزاء بعض المفاهيم المجردة: «يمكننا  
أن نكون حساسين إزاء تفخيم الوحدة، أو إزاء التنوع غير المتناهي، كما يمكننا أن  
نكون حساسين إزاء تفخيم الثابت، أو إزاء المتغير؟». ولقد يعني هذا، أن اختيار  
رؤية للعلم يمكن أن تمليه الحساسية، أو اللاوعي. وإذا كان ذلك كذلك، فإن هيلين

توزيه لتقترب في هذه الحالة من يونغ، ومن باشلار: ولكنها تتخطى خيال العناصر الأربعة لكي تعالج الكون ورؤيتها معالجة جماعية. ولقد استحوذت «أمراض الخيال الفعلية» على بعض الأفراد في بعض العصور، وذلك لأنه يوجد «عمق مشترك»، منه تنبثق الأساطير، كما أنه ثمة قرابة بين الإنسان والكون.

إن ما يجعل من هذا الكتاب فرادة، هو أنه يقترح في وقت واحد نماذج عليا وتاريخ رؤية الكون. وإن هذا التاريخ الذي يمر عبر كوبرنيك، وجيوردانو، وكيلير، والأب كيرشير، وديكارت، ونيوتن، ليستوحي من أعمال كوايري («الجاذبية الكونية من كيلير إلى نيوتن، 1951. «من العالم المحدود إلى الكون غير المحدود»، ومن م نيكولسون» (العلم والخيال، 1956)، ومن كويستلير (الرُّبُص، 1959). ويستند إذن تاريخ الخيال إلى تاريخ العلم (وخاصة علم الفلك)، هذا من جهة، وإنه ليمتد، من جهة أخرى، في تاريخ الأدب. وهكذا يمكن للمرء أن يميز «عائلتين فكريتين كبيرتين». فهناك «البارمينيديان»، وهؤلاء يعترضون على الوقت، ويبحثون عن كمال الكائن الثابت، وعن الكوكب السيار. وهناك «أولاد هيراقليت»، وهؤلاء على العكس من الآخرين، ينشرحون في التنوع، وفي الوقت، وفي الصيرورة: «إن كل اتجاه من هذه الاتجاهات يبدع فلسفته، ويختار أو يعدل علمه، وبالطبع، علمه بالكونيات». أما البارمينيديان فيختارون العالم الفلكي الموروث عن أفلاطون، وأرسطو، وبتوليمي»، الذي نجده في القرون الوسطى، والذي يروي ظلماً الأمن، والذي يرضي أيضاً «الحاجة إلى النظام والتناغم»، وإن علم الفلك ليتمم «العلاقة الحميمة مع السماوات».

ينتقل تاريخ التصورات الكونية من الكون عند كوبرنيك، والذي يمثل بناء تقليدياً و«محددًا»، إلى انفجار الفلك وإلى انتصار اللامتناهي. ومع ذلك، فإن الكتاب والمفكرين ليستطيعون أن ينتسبوا إلى متصور قديم أو مضى عهده:

فشيلانع يطور نظرية عن الكواكب، هي امتداد لنظرية كيبلير. ويرضي نيوتن في وقت واحد الكلاسيكيين والرومانسيين، فهو يقدم للكلاسيكيين، بفضل الجاذبية، عودة إلى النظريات القديمة عن الحركة ويؤكد لهم أن هذا «التناغم للعالم» إنما له «منظم». وإنه ليقدّم للرومانسيين «معنى الممكنات غير المتناهية للإنسان: وكان شعراء القرن السابع عشر يلقبونه بـ «أعظم يمامات السماوات» وبـ «الإنسان الرياني». وكان آخرون لا يكفون عن الرغبة في إعادة بناء عالم فلكي، كما كانوا لا يكفون عن الرغبة في العود الأبدي: وهذا ما تمثله أسطورة «الأوريكا» لإدغار بو من أجل تأويلها، فإن التحليل النفسي- ماري بونابرت . لا يكفي). وتعارض هيلين توييه هذه العوالم مع «العوالم الهاربة» للرومانطيين الألمان الذين سينتسبون إلى الكون كما كان يراه اليكساندرفون همبولدت (1845)، أي الحفاظ على عالم ممزق، حيث يتيه السديم، وإن هذه المواضع لتوجد عند لامتريتن (الشمس، العوالم التائهة التي تندفع معنا). كما نجدها عند هيجو ونيرفال. وستتم الإشارة في نهاية القرن إلى نجاح أعمال كامي فلاماريون، وأثر هذه الأعمال على الخيال الشعبي وعلى الشعراء الكونيين. فعالمه المنحرف يشبه «كائناً حياً، ويستلزم فلسفة باطنية. هذا، وإن الطاقة الأولية لتمتص المادة، والله في نهاية العالم. «فعال المرئي ليس سوى حجاب للعالم غير المرئي».

بدأ الاتجاه في نهاية القرن التاسع عشر بالتخلي عن قضية تناغم العالم: وإنه ليشهد على ذلك ليكونت دي ليشنت، ولافورغ، وبورج، كما يشهد في القرن العشرين الدكتور فوستوس دي توماس مان. إذ إن هذه الشخصية تعتقد بعالم يتوسع توسعاً عبثياً. فعمله الموسيقي «عجائب كل شيء» يستدعي «تشوّه التكوين السماوي». ويؤكد، على العكس من هذا عضومن عائلة أخرى هو كلودل، أن موضع الإنسان في العالم وفي الخلف المتناهي، إنما هو كامل، وصنع إلهي: بهذا

تعود الأرض مجدداً لتكون هي مركز العالم، تماماً كما لو أن العلم الحديث لم يأت بعد. وإن دراسة العلاقات متساوقة؛ فمن أفلاطون إلى سوبريفي، ثمة استمرارية، وهذا الاعتقاد الذي يذهب من العيون إلى النجوم. ويضع الكتاب الأرض، في هذا الفضاء، كما لو أنها جزيرة، أو الجنة. أو هم لم يعودوا يرون فيها نحو عام 1850 ، غير الفراغ والظلمات. تلك التي سيحاول سوبريفي في كتابه الجاذبية (1925)، أن يطورها. أو هناك أيضاً من يرى أن «الرحلة الكونية» تسمح بالتجوال ضمن الفراغ؛ ويعد هذا جنساً أدبياً له قواعده القديمة جداً، منذ الإغريق إلى دانتى. فليغير المتناهي رواده، ثم له «منافسيه». وإن هذه الرحلة لتكون تارة مطمئنة، وأخرى مدعاة للهلاك: أما العمل الرائع في هذا الباب، فقد كتبه جان بول.

أما الموضوع الثالث الكبير الذي أعطاه التفكير العلمي للخيال الأدبي، فهو «حياة الكون»، فلقد كانت الكواكب تمثل كائنات حية بالنسبة إلى الفكر الإغريقي. وإن العائلتين الفكريتين اللتين اصطدمتا «بخصوص بنية العالم»، قد تعارضتا أيضاً بخصوص الحياة الكونية. ذلك أن الأساطير الإحيائية، إبان النهضة، قد عادت إلى الظهور: «فالكون المصمم بوصفه جسماً فريداً، وثنائية السماء والأرض، وفردانية الكواكب»، إنما هي ثلاث درجات لهذه المتصورات. فالكون الصغير للإنسان يساهم في الكون الكبير للعالم. ومع ذلك، فبفضل تيليسكوب غاليليه، ندخل إلى عالم المتغيرات. فهو يكشف عن سماء خاضعة للفساد، وعن نجوم جديدة. وهكذا، فإن الفكر الإنساني يفقد ملجأه في «السموات المتينة». وإننا لن نوجز تحليلاً يمر باكتشاف الجاذبية الكونية، ومعالجة الشعراء لها (موسيه ، هيجو). أو يمر بالتوسع الإحيائي في عصر الأنوار، وذلك لكي نصل إلى اسطورة النار ورموز الحياة الكونية الأخرى: الشجرة (هيجو، لوكونت دي ليسنت)، الهدرة (هيجو، بورغيس، كيبلانغ، لورانس). فالمبارزة بين النور والظلمات، والظل إنما هي

موضوعات تأسست في صور الأنثى الليلية، وفي صورة هيليه، وفي «الأثلة حيث يسبح الجنين، وبحر الحليب»، وفي البحر، وفي الليل. ولقد اكتشف العلم السديم، اللبني أو المظلم. فاستعمله الشعراء. وإن كل شيء لينتهي بموت العوالم، وموت الأساطير في نهاية العالم، وذلك في حريق مدمر (شوب، ويلز). وإذا كان فلاساريون قد تنبأ ببعث الكواكب، فذلك لأن النار تولد جديد، تماماً مثل الفينيكس (ولقد تبني هذه الفكرة كل من بوانكاريه ومورو). ولكن ثمة بعث نهائي للكون في مملكة النور (دانتي، كلوبستوك، جان بول، نيرفال، هيجو - وتييار دي شاردان). أما ما يتعلق بالإختفاء بسبب الصدمة الذرية، فإن كتاب هيلين توزيه لايلامس القضية إلا ببعض السطور. ويبقى هذا البحث أساسياً بالنسبة إلى كل أولئك الذين يهتمون بالأنثروبولوجيا بوصفها كلاً، وبالخيال في عمل العلوم كما في الفنون، وبالفاعل بين مختلف هذه الميادين.

إن الأفق العلمي لكبار الكتاب مرتبط بتاريخ الكون في الفكر الانساني؛ والنماذج العليا، منذ أفلاطون إلى القرن العشرين، تخضع للزمن. وهكذا يتصالح التاريخ مع البنية من خلال رؤية الكون.



## Northrop Frye

لقد قمنا حتى الآن بفحص الخيال النقدي  
عند غاستون باشلار وتلاميذه. وفي عالم  
آخر من غير أن نذكر، وربما لانعرفه، نشر

نورثروب  
فراي

5

نورثروب فراي، وهو أستاذ كندي (من جامعة تورونتو) في عام 1947 كتابه  
«تشريح النقد» (الترجمة الفرنسية عام 1969). ولقد كرس هذا الكتاب الهائل  
فصله الثاني لدراسة «نظرية الرموز»، وفصله الثالث لدراسة «نقد النماذج العليا»  
و«نظرية الأساطير». وهذا يعني أننا نجد مرة أخرى أنثروبولوجيا الخيال.

تبدأ دراسة النماذج العليا بدراسة الأساطير. وهي عبارة عن «نماذج من  
المواضيع أو عبارة عن نماذج أدبية بحثة. وإنها مختلفة عن قواعد المحتمل». فالأسطورة هي «محاكاة لأفعال تصممها الرغبة»؛ مثال ذلك الحب متعدداً ومعارك  
الأرباب. وإنه ليحتوي على «المبادئ البنيوية للأدب»، ولكنه يقوم في الطرف الآخر  
للمذهب الطبيعي (naturalisme). فالروائي يمارس الانقطاع عن الواقع بالنسبة  
إلى الأسطورة؛ فإذا كانت الأسطورة تقدم لنا «الإله . الشمس»، فإن الروائي  
يعرض شخصية «مشاركة مع الشمس». وأخيراً، فإن التيار الواقعي ليكون هو  
الأبعد عن الأسطورة. إلا في السخرية، ويميز فراي، في داخل العالم الأسطوري  
المحض، الشيطاني الذي يحيل إلى جهنم، والرثيوي الذي يشير إلى السماء.  
فمصورة السماوي تعرض المدينة، والبستان، والزريبة. فإذا كان المسيح هو الرب  
فهذا عالم الألوهية)، وإذا كان رجلاً (فهذا هو عالم المدينة)، وإذا كان حَمَلًا (فهذا  
هو عالم الحيوان: الزريبة)، وإذا كان شجرة الحياة (فهذا هو البستان)، ولقد كان

فراي يتابع دراسة الصور على ضوء التوراة: اليمامة، الورد، الماء، النار. وأما الصورة الشيطانية، فهي تلتحق «بالجحيم الوجودي». وإنها لتشخص «قدرة الطبيعة»، وذلك عندما أصبحت السماء مستعصية. وإننا لنجدها في «الشخصية، وفي الجنس والمجتمع». وأما العالم فيحتوي على المستبد وعلى الضحية. وأما الملك النباتي، فهو مشؤوم فيه، فهناك الصحراء، وهناك الغابة الخطرة، والهاوية، والمتاهات.

ويكننا أيضاً أن نميز بين «المرغوب فيه» و«غير المرغوب فيه». وأما «المرغوب فيه» رغبة لاتنتهي»، فهو الله. وإن المأساة اليونانية لتدفع بنا لكي نقبل غضب الأرباب. ويبين فراي من جهة أخرى، أننا مع تقدم القصة نمر من «بنية إلى أخرى»، وذلك باتباع «حركة دائرية»: موت الأرباب وولادتهم، إيقاعات السنة، اليقظة والحلم، حياة البشر وموتهم، دورة الفصول (ولقد يشخص الأرباب هذه في بعض المرات، فلدينا أدونيس أو بروسيربين)، العصر الذهبي أو المستقبل الخراب للحضارة، رمزية الماء، رمزية المطر في البحر. وكما ستفعله هيلين توزيه، فإن فراي سيلتقي هنا علم الكونيات (دانتي، ميلتون). وأنه ليستخلص، انطلاقاً من متصور هذين الكاتبين عن العالم، «الحركتين الرئيسيتين للقصة: حركة دائرية ضمن نظام الطبيعة، وحركة جدلية تنطلق من هذا النظام نحو العالم العلوي للسمائي».

يعدد كتاب «تشريح النقد الفئات»، فيميز «الطرق في العمل الخيالي»، ويذكر أن الأسطورة والبطل في العالم الأول من طبيعة ربانية، ثم يأتي بعد ذلك أبطال القصص الخرافية، وذلك في «عالم المحاكاة الأعلى». ثم يتبعهم الأبطال الذين هم قادة في المأساة أو في الملحمة. ويأتي بعدهم الأبطال الذين يماثلوننا في عالم «المحاكاة الأدنى». والأبطال الذين يبدون لنا أنهم أقل درجة، فهم في الهجاء أو في السخرية. ولقد تطور الأدب الأوربي مروراً بأولى هذه الفئات وانتهاءً بأخرها. وثمة

تحليلات أخرى لفراي، تعد من نظرية القصة. وأما ما يشدنا هنا، فهي نظرية النموذج الأعلى فقط، أي «العامل الرمزي للإيصال»: «قصورة رمزية مثل صورة البحر أو صورة الأرض البائرة، لتتجاوز حدود عمل كورناد أو عمل توماس هاردي (...)». وإنها بنموذجها الرمزي الأعلى للتصل بالأدب في مجموعة». فمويي ديل يلتحق بالتنين. والشاعر يستهلك قوته في «كنز» الأعمال العظمى. غير أن النقد هو الذي يحدد علاقات نص من النصوص «مع كل ما تبقى من الأدب». فالعمل الفني هو «أسطورة توحد بين الطقس والحلم».

إن الخيال النقدي غير الفرويدي. كالنقد في تيار الوعي، هو أيضاً غير فرويدي . يتبع طريقين إذن: طريق الخيال المادي الذي يودع نفسه في الصور. وطريق النقد الأسطوري الذي يقترب من النماذج العليا ليونغ ومن علم الأساطير الإغريقية، والرومانية والهندية، أو الكونية. ولم لا؟ ولقد انتجت سلالة باشلار، عدداً من الكتب عن خيال العناصر (الماء، أو الزجاج عند بروست، وذلك عن طريق أوشيبا أو ماندلسون)، أو عن موضوعات أكثر حصرأ (السجن الرومانسي لبرومير، 1975، بيراميز والرومانسيون الفرنسيون لوزيول كيلير. دراسات عن الخيال في الحياة ليشيل مانسوي). وأما الاتجاهات الأخرى، فقد ذكرها بيير البوي (الإبداع الأسطوري عند هيجو، الأساطير الكتابية) في كتابه «الأساطير وعلم الأساطير في الأدب الفرنسي» (1969). وإن هذا الكتاب ليزودنا بتاريخ غني جداً ويفهرس مثله غنى. وثمة مثل رائع عن هذا المنهج، أعطته ماري فيفيه في عام (1982): (المنحى الأسطوري عند مارسيل بروست). وأخيراً، تجب الإشارة إلى نشاط العاملين في الحقل المقارن (تروسون، برونييل). فهم يكونون، في بعض المرات، أكثر إلى المواضيع قريباً من النماذج العليا، ولكنهم حينما يعالجون «إليكترا» أو المسخ، فإنهم يتصلون حينئذ بعالم الخيال من غير حدود. وهكذا تنغلق الدائرة منذ صدور

الكتاب الرائع لماريوبيراز (الجلد، الموت والشيطان) (1930). والترجمة الفرنسية (1950)، حيث نجد العالم الإيطالي الكبير يدرس: «جمال ميدوس»، «تحويلات إبليس»، «ظل المركيز الرحماني»، «المرأة الجميلة من غير شكر»، «بيرانطا»، «نزعة الشر الانكليزية»: وهذه كلها دراسات في المواضيع، تغذيها معارف تاريخية مستعارة من كتاب إنكليز. وتمثل المواضيع فيها نوعاً من الاستحواذ، وتعرف الخيال عند مدرسة، وفي عصر، وفي قرن.

## النقد في التحليل النفسي

إن تحليل الخيال، إذا كان لا يريد أن يضل في الفراغ، فعليه أن يلتقي التحليل النفسي. ولقد استخدم باشلار هذه العبارة، ولكن لكي يحولها عن معناها، فلا ينضم أبداً إلى مؤسس هذا النظام. وإن جان بيير ريشار، بعد أن رفض العبور من الإحساسات إلى شيء آخر غير الوعي، أقدم فاستخدم في كتابيه «بروست والعالم الحساس» و«القراءات الصغرى»، متصورات تنتمي إلى التحليل النفسي، ولكنها ظلت تابعة من غير إدخالها في نسق. وأخيراً، فإن النقد الأسطوري اعترف من إرث جماعي، وغير زمني أحياناً، وغير قائم في تاريخ الوعي الباطن الفردي. ومع هذا، فإننا لن نزع أننا سنعيد، من بعد آخرين، صنع تاريخ التحليل النفسي المطبق على الأدب (أن كلاسيكيه: «التحليل النفسي والنقد الأدبي»، منشورات بريفات، 1973. مكي ميلنير: «فرويد وتأويل الأدب»، منشورات سيديس، 1980. جان بلمان نويل: «الأدب والتحليل النفسي»، منشورات P.U.F.، 1978)، ولكننا سنبن أي الوسائل يستخدمها النقد الأدبي، الذي يعلن انتماءه، إلى التحليل النفسي، لكي يدرس الأعمال.

إذا كنا نستدعي في المكان الأول اسم مؤسس التحليل النفسي، فذلك لكي نبين كيف أن تحليله للأعمال الأدبية يعد من النقد.

1  
فرويد

فالنصوص، بالنسبة إليه، هي أمثلة وفرص لتطبيق علم على موضوعات تبدو له

وبالنسبة إلينا، إذ نعكس المنهج، فإننا سنطبق على نحو ما، الأدب على الخطاب الفرويدي الخاص بالرواية، والحكاية، والشعر. ففرويد في كتابه «حياتي والتحليل النفسي» يطابق بين العمل والأحلام العادية، وينظر إليه بوصفه إرضاء خيالياً لرغبات غير واعية، تستيقظ وترضى عند البشر الآخرين التطلعات نفسها. إذ ثمة مسط من الإغواء يكمن في اللذة المرتبطة بمشاهدة الجمال والشكل.

ومع ذلك، فإن دراسة النصوص الأدبية، تحمل عناصر أكثر تحديداً، وأكثر تعقداً، وأكثر دقة، كما هي الحال في «هلوسة وأحلام» وفي «غراديفا» «جانسن» (1923)، الترجمة الفرنسية (1949)، وفي «بحوث في التحليل النفسي التطبيقي» (1906-1923)، الترجمة الفرنسية (1933). وأما كتاب «عبارة الذهن في علاقاتها مع الوعي الباطن» (1905)، الترجمة الفرنسية (1930)، إذا كان يسهم في نظرية الهزل، فإنه لايطبق أبداً على نصوص أدبية. وإن الحال لهو كذلك فيما يتعلق بعبارات ذهنية يتضمنها كتلك التي يذكرها كانت في «نقد الأحكام»: لم يعودوا يضحكون.

إن العمل الأول لفرويد إزاء عمل جانسن «غراديفا» تجلّى في عزل نموذج من النصوص مثل قصة الحلم، الحلم «الذي ينسبه الروائيون إلى شخصياتهم المتخيلة»، ثم إخضاعه للفحص: إن الروائيين والشعراء «ليعرفون أشياء ما بين السماء والأرض، لاتستطيع حكمتنا المدرسية أن تحلم بها بعد». وثمة طريقتان ينفتحان: إما أن تكون الحالة حالة خاصة مثل «الأحلام التي يخيّلها الروائي في أحد أعماله» (ومن هنا كان التطبيق الذي أقامه الآخرون على نيرفال، وبروست، وبروتون)، وإما أن تكون «مقارنة بين كل الأمثلة» التي تم العثور عليها في أعمال كل الكتاب. ولقد نعلم هنا أن فرويد قد اختار الطريق الأول. إنه يبدأ باختصار الرواية، ولا يكون ذلك من غير أن يسمح لنفسه، بشكل عابر، ببعض التعليقات

النفسية (الذكريات المكبوتة مثلاً): لا يمكننا أن نفهم التفاصيل إلا من خلال المجموع، ذلك لأن العرض الذي يقوم به الروائي للحياة النفسية لا يستدعي سوى «المصطلحات التقنية لعلمنا». ثم إن فرويد بعد ذلك، ليجد، من خلال استيهامات البطل وهلوساته «حافزه الجنسي غير الواعي»، فيرسم أحلام البطل، ويعيدها إلى موضعها ضمن مجموع القصة، مستنداً في هذا إلى «علم الأحلام». وحينئذ يأتي دور التأويل: إننا لنجد، تحت المضمون البين، «الفكر الخفي للحلم»، والذي هو «ليس فكرة واحدة»، ولكنه «نسيج فكري». وإن المهم لهو الوقوف على «فهم السمات الرئيسية «للحلم»، وعلى «دخوله إلى حبكة القصة». إذ كثير من النقاد ينسون هذا المبدأ الثاني. ذلك أنه من أجل تأويل حلم من الأحلام، يجب إذن «إدماجه مع الأقدار النفسية للبطل». ويكون هذا برص، من خلال خيط القصة، «أكثر ما يمكن من التفاصيل عن الحياة الخارجية والداخلية للعالم». وعندما تنقص هذه التفاصيل، فسيكون من العبث الادعاء بتأويل هذا الحلم، فكل قسم من مضمون الحلم، وكل وحدة حلمية، إنما يشتق من «الانطباعات، والذكريات، ومن اشتراكات الحالم الحرة». عندما نأوّل الحلم، ونضعه احتمالياً لأحلام سابقة، فإننا نكون قد أزلنا التباساً بين الهذيان والحلم. فالروائي والمحلل قد فهما، الواحد والآخر، الوعي. وإن فرويد ليعلم: كان كافياً للفنان أن «يركز انتباهه على لاوعيه هو، وأن يعبر أذنه إلى كل هذه الافتراضات وأن يعطيها التعبير الفني، بدل أن يكتبها بالنقد الواعي. فهو يتلقى من داخله بالذات، ما نتلقاه نحن من الآخرين». إن شرح حلم يعني إذن، العثور فيه على قوانين الوعي الباطن، أي تلك التي أدخلها الكاتب بفضل «تسامح ذكائه». ولقد حدد فرويد بعد خمس سنوات أن التحليل النفسي يبحث لكي «يعرف» بأي عمق من الانطباعات والذكريات الشخصية بنى الكاتب عمله: وهذا يعني أننا ننقل من النص إلى السيرة، ومن الشخصية إلى الكاتب.

يضع كتاب «غرافدا» قصة الحلم في بنية الكتاب. وإن بعض المقالات التي جمعت في كتاب «بحوث في التحليل النفسي التطبيقي» لتقود المرء كي يسأل نفسه عما إذا كان النقد القائم على التحليل النفسي يستطيع أن يكشف عن وجوه أخرى من وجوه العمل. وأما كتاب «الابداع الأدبي والحلم اليقظ» (1908)، فإنه يطرح مسألة أصل الموضوعات، والانفعالات التي يثيرها قينا. ويؤكد فرويد أن العالم الشعري عالم غير واقعي، وأنه نتيجة لعبة. «فالتقنية الفنية» تستثار لذة مع أشياء لايمكن أن تحدثها لو أن الأشياء كانت واقعية، كما يؤكد أن ثمة «انفعالات، هي في ذاتها تافهة، غير أنها تستطيع أن تصبح ينبوع متعة بالنسبة إلى السامع أو المشاهد». وإننا لنغادر هنا قصة الحلم إلى عمق العمل، وذلك بتوسيع النظرية لتشمل مجموع الاستيهامات؛ إنه يكفي التذكير بأن لها تاريخاً، وذلك لأن «الرغبة تعرف استغلال فرصة يمنحها الحاضر بغية رسم صورة للمستقبل على غرار الماضي». وهكذا، فإن الحلم اليقظ، الحامل للاستيهامات، ليوجد في الابداع الروائي؛ فثمة البطل المعصوم، والحب الذي يحييه، والأعوان الذين يصادقهم، والأعداء الذين يواجههم، وكل هذه إنما تكون «عناصر ضرورية للحلم النهاري». ولذا، فإن الأعمال الأكثر ابتعاداً عن العالم، نعود لنعلقها فيه عن طريق «سلسلة التحولات المتتابة». وإن فرويد لينصرف إذاك إلى تحليل تقني للرواية النفسية. وإنها لرواية السمّة الأساسية فيها تقوم على انشطار «أنا» المؤلف لتكون «أنا جزئية». وبهذا فإن مختلف الأبطال يشخصون مختلف تيارات حياة الروائي النفسية. وإذا كان البطل في روايات أخرى ليس سوى شاهد، فإنه ليكون كذلك في بعض الأحلام.

وحين يتم تطابق الابداع الأدبي مع الحلم اليقظ، يقترح فرويد العودة إلى العلاقات بين الحياة والعمل. وسيكون الاقتراح تافهاً، ومخيباً، إذ يخضع



لفرضيات جديدة، وهي أزمدة الرغبة الثلاثة في علاقتها مع الاستيهام: «إن حادثة مكثفة وحالية لتوقظ عند المبدع ذكرى حادثة أكثر قدماً. وإنها لتكون في الغالب حادثة من حوادث الطفولة. وتُشَقَّقُ من هذه الحادثة البدائية الرغبة التي نجد أن عليها أن تتحقق في العمل الأدبي. وإننا لنستطيع أن نتعرف في العمل ذاته على عناصر من الانطباع الحالي، أو على أخرى من الذكرى القديمة». وإن العمل في نهاية الأمر هو «بديل للعبة طفولية من ألعاب الماضي». إنه حلم طفل، ولكن هذا يمكن أن يكون أيضاً بالنسبة إلى الأسطورة، فهي «رغبة أمم بكاملها»، «وأحلام قديمة بالنسبة إلى الإنسانية الشابة». وليس التحليل الدقيق هو المقصود (كما في غرافيدا) بمقدار البرنامج، فقد كانت النقطة الأخيرة له هي دراسة الأثر الحادث على القراء. ذلك لأن استيهامات المؤلف هي عكس استيهامات العصابي. إنها تهب اللذة، وتتخطى النفور بفضل التقنية الفنية. وتستخدم الدراسة وسيلتين: هناك اللذة الشكلية (جائزة الاغراء) و «لذة تمهيدية». وإنها لتطلق «متعة عليا تنبثق عن طبقات نفسية عميقة». وهناك «الحجاب» الذي يخفي أنانية المؤلف. فإذا كانت هذه «متعة استيهاماتنا» من غير وسوسة وتشكك، فإننا «نرتاح من بعض التوترات». يقترح هذا المقال إذن دراسة شكلية للعمل، تقوم في العلاقات بين الشخصيات، وذاكرة الأبطال، وحياة رغباتهم، وعلاقاتهم مع الزمن، ولعبة الأسلوب ولكن إذا أردنا أن نتساءل عن المؤلف، فسنتقف على شبكة استحواذاته، وذكريات طفولته، وفوق كل شيء سنتقف على أقنعتة المنزوعة واحداً إثر آخر. ومع ذلك، فإن الأكثر جمالاً في هذا المقال هي العلاقة الناشئة، من خلال العمل، بين رجلين متحررين. ويشكل كتاب غوتيه «ذكرى طفولة» (1917) مثلاً، وعنصرأ في هذا النسق، وهذه السلسلة. ففرويد يعزل في «خيال وحقيقة» لغوتيه، المشهد الوحيد الخاص «بالطفولة الصغرى» للمؤلف. وهو المشهد الذي نرى فيه الطفل الصغير، ذي الأربع سنوات على الأكثر، يتسلى، يشجعه ثلاثة أخوة من الجيران، فيكسر الأطباق رمياً

على الأرض. ولقد كان يمكن، قبل اكتشاف التحليل النفسي، أن نقرأ هذا المشهد «من غير التوقف عليه». إن الناقد يعتقد إذن أن أي ذكرى تخص الطفولة الصغيرة أساسية. وأن هذه الذكرى التي تبدو غير مهمة، تحتاج إما إلى «عمل تأويلي» يعد ضرورة، أي تحتاج إلى ربطها بعلاقة مع حوادث مهمة أخرى، تكون هذه الذكريات بمثابة «عدسة مصورة» بالنسبة إليها، أو أنها تحتاج إلى إبدالها بمضامين أخرى.

التقى فرويد مريضاً. إنه غيور منذ الولادة من أخيه. ولقد ارتكب أفعالا عدوانية، ومن ذلك مثلاً أنه كان يرمي الأطباق عبر النافذة. وإذا كان الحال كذلك، فإن لغوته أخاً يصغره بثلاث سنوات، ومات في السادسة من عمره. إن الطفل إذن قام «بفعل سحري» ويرى غوته أن سلوكه يشرحه مرضى فرويد. فموت الأخ الصغير يطلق عنان كاتب المستقبل، الذي عبر عن شعوره، بادئ ذي بدء، برمي الأطباق (التي يرمز ثقلها إلى أم حامل): ولقد حدث هذا كما لو أن غوته كان يقول: «أنا طفل من أطفال السعادة، فضّلني القدر، وأبقاني القضاء في الحياة، وإن كنت قد أتيت إلى الحياة والظن بي أنني ميت. ولكنه جرى على أخي، وبشكل لم أعد أحتاج فيه إلى اقتسام حب أمنا معه». وإذا بقي غوته «الطفل المصطفى» عند أمه، فإنه قد احتفظ على مدى الحياة «بشعور الفاتح» و«يقين النجاحات»، ومن هنا، فإن سيرة غوته، وتاريخ انتصاراته يجد أصله في هذه الذكرى الضيئلة. ولذا فإن المنهج يقضي إذن بالعثور على المعنى الخفي لمر مبهم من غلبة التفاهة: إن النقد في التحليل النفسي هو نقد للمعنى.

وثمة مقالة أخرى بعنوان «موضوع الصناديق الثلاثة» (1913). إنه يثبت أن القراءة تواجه «مشكلات» يجب «حلها». وبالنسبة إلى تحليل غوته، فإن العنصر الجديد هو الأزواج. وكان المقصود مشهدين من مشاهد شكسبير، «الأول مبهج، والثاني مأساوي». الأول مستعار من «تاجر البندقية»: يجب على طلاب الزواج لكي

يتزوجوا من بورتيا أن يختاروا من بين ثلاثة صناديق، واحداً منها يحتوي على صورة هذه. هنا تكون الصناديق الثلاثة، كما تشير الأحلام، رموزاً لنساء ثلاث. وأما المشهد الثاني، فمأخوذ من الملل ليار، ومن بناته الثلاث. وإن المنهج الأسطوري، ليعطي، بالمقاربة، مشاهد أخرى (باري، ساندريون، بسيشيه). فلماذا ثلاث نساء، ولماذا اختيار الأخيرة؟ إن لغة الأحلام، وكما هي لغة الحكايات، لتدلنا على الأخت الثالثة، وتمثل الخرساء منهن الموت؛ إن الغاية إذن هي «البارك» الهة القدر. ولكن في مسرحيتي «تاجر البندقية» و«الملك لير» نجد الفتاة الأكثر جمالاً، أو الأكثر وداعة. ذلك لأن «الحوافز في الحياة النفسية تعوض الشيء بضده». ولقد أبدل المنحى الأسطوري الهة الموت بألهة الحب. وكذلك الحال، فإن موضوع الاختيار يعكس موضوع الضرورة. فالشاعر عاد إلى «الأسطورة البدائية». ويشرح فرويد بخلاصة رائعة، كيف أن كورديليا التي ماتت في ذراعي لير المحتضر، تشخص الموت، وأننا لو «عكسنا الوضع»، فإن «ألهة الموت هي التي ستحمل من أرض المعركة البطل الميت». إن الأخوات الثلاث يجسدن إما «المولدة، والزوجة، والمهدمة»، وإما «النساء الثلاث اللواتي تتمثل بهن، في مجرى الحياة، صورة الأم نفسها: الأم ذاتها، والعاشقة التي يختارها الرجل على صورتها، وأخيراً «الأرض. الأم» التي تعود لتأخذه من جديد». وهنا يلتقي درس الأسطورة ودرس التحليل. وذلك لأن العلاقة مع الأم من لقاء المرضى. ولم يكن ثمة أي جهة، على العكس من هذا، لتحليل لير تحليلاً نفسياً؛ فوحدة النص وسره اختزلاً بوساطة أدوات خارجية.

إذا أراد الناقد في التحليل النفسي، بدءاً بفرويد، أن يضطلع بمهمة تأويل مقاطع صفحات لعمل من الأعمال ليس كل شكسبير، ولكن تأويل مشهدين متداخلين من مسرحه. فلا شيء يظهره كما يظهره المقال الشهير، والذي هو مجاز من مجازات القراءة الفرويدية: «المقلقة الغريبة» (1991). ذلك لأن النص إذا لم

يوقظ فينا شيئاً من السأم، فإنه لن يستدعي أولوية البحث عن المعنى. وإذا كان ذلك كذلك، فإن هذا النموذج من النصوص (المختلف عن نص الاستيهام) سيهمله البحث في علم الجمال: إن دراسة معجمية، متوفرة على عدد كبير من الأمثلة والاستشهادات، لتسمح بتحديد ما يكونه «Unhe imlich» وثمة أمثلة تم البحث عنها في حكايات هوفمان («رجل الرمل»، جرى تلخيصها زمناً طويلاً). وفي روايته «إكسير الشيطان»، وفي موضوع «الازدواج» (وقد درسه أوتورنك سابقاً). يقيم فرويد قائمة من العوامل التي «تحول ما لم يكن سوى سأم إلى مقلقة غريبة»: الطوطمية، والسحر، والتعزيم، وكلية القدرة للأفكار، والعلاقات مع الموت، والتكرارات غير الإرادية، وعقدة الاختصاص. فالشعور نفسه إنما ينتج عندما تمحي الحدود بين الخيال والواقع في الحياة كما في النصوص. ولكن المقلقة الغريبة أكثر غنى في النصوص مما عليه في الحياة الواقعية. وذلك لأن «ميدان الخيال» معفي من «برهان الواقع». ما يخص ذلك الشعور الذي يحسه القارئ، فإنه «يلد في الحياة الواقعية عندما توقظ بعض الانطباعات الخارجية عقد الطفولة المكبوتة، أو عندما تبدو بعض القناعات البدائية التي تم تجاوزها مجدداً وقد صير إلى تأكيدها». وإن هذا الشعور لمبعث للقلق في القصة الخيالية كما في الحياة. وإذا نظرنا في حركة فرويد، فسنجدها متمثلة في: سأم، وصفحة، وأصل. وتغذي هذه كلها ثقافة عظمى، كما تغذيها قراءة فرويد الأدبية أيضاً.

ولقد اهتم، بعد الأستاذ، العديد من المحللين النفسيين بالأدب، وليس نقاد الأدب. ونجد من ذلك مثلاً أن لاكان قد درس كلاً من باتاي، وكلودل، وغوته، وهيغو، وجويس، وموليير، وباسكال، وبلوت، وموليير، وشكسبير، وفيد كاند. كما درس في نصوص عظيمة «بو»، و«ديراس»، و«جيد» (انظر فهرس «م. ماريني» «لاكان»، منشورات بيلفون، ص 275 - 297).

## Charles Baudouin

شارل  
بودوان

2

لم نكن لنرى في اللغة الفرنسية، قبل عام 1930، إلا دراسة جاك ريفيير عن بروس، ودراسة فرويد (بعض التقدم في دراسة القلب الإنساني) لكي يطبق التحليل النفسي على النقد الأدبي. ومع ذلك، فقد نشر شارل بودوان في عام 1929 تحليله النفسي للفن. ويمكننا أن نقطع من هذا العمل الغني أيضاً «الرمز عند الفيايران»، «دراسة في التحليل النفسي للفن» (1924)، «تحليل نفسي لفكتور هيجو» (1943)، «انتصار البطل» (1952)، ويريد «التحليل النفسي للفن» أن يبحث في العلاقات التي يقيمها الفن مع العقد، سواء كانت شخصية أم كانت بدائية، وكذلك عند الفنان المبدع وعند المتأمل العمل، وإنه لينقسم إلى ثلاثة أقسام. أما القسم الأول، فقد خصص للإبداع. وأما القسم الثاني، فقد خصص للتأمل. وأما القسم الثالث، لوظائف الفن. ولقد وجد بودوان في حوافز الأسطورة «العقد البدائية». وكان في ذلك، مستلهما من فرويد، وإبراهيم، ورائك، ويونغ: «إن المنحى الأسطوري هو المضمون الظاهر لحلم كبير، عقده البدائية هي المضمون الخفي». وبعد أن عرض المؤلف لنظريات فرويد شغل نفسه بعقدة أوديب في الفن. : فلقد وجدته في حافز «الأب. المستبد» (دون كارلوس وغيوم تيل لشيلر)، وفي الأخوة الأعداء (بريتانيكوس). ومن المؤكد أن شيلر لم يكن له أخ، ولكنه كان متعلقاً بأخته: «فالحب الذي كان للأم انتقل إلى الأخت، وانصب في بعض الأعمال الخيالية على الأخ المتخيل». ويجعل بودوان كذلك هاملت وأوديب لجونيس (تكلمنا عن هذا الأمر حين تعرضنا لساروبانسكي): لقد سمع هذا الكتاب بتأمل تأملات المختصين بشكسبير، وذلك حين نقرأ في مسرحية الصراع الأوديبى. فالصورة الأبوية تتفكك، كما هي الحال في عدد من

الأساطير إلى اثنين (الأب والمستبد). وإننا لنعلم أخيراً بأن هاملت قريب من موت شكسبير. كما نعلم أن التحليل نفسه يصلح بالنسبة إلى ماكبت، قاتل دونكان. ولنعد أيضاً إلى أوتورانك. إن بودوان يعرض دون جوان (ونجد أن ليبوريلو ليس سوى مزدوج) بوصفه كائناً تهيمن عليه عقد الذنب، التي لها أصول أوديبية، يؤكدما ثار الفارس الأمر. ومع ذلك فإن الذي يعبر عن نفسه «ليس هو الأوديب في ذاته، وإنما بعض الأوضاع المشتقة من الأوديب، وهي شخصية جداً»: إذا لم نول لهذا الحافز أهمية، فإن الشروح سريعاً ما ستصبح رتيبة، وسننتهي إلى القول إن آلاف الأعمال تعبر، في الواقع، عن الشيء نفسه (الأوديب)».

ويعالج بودوان النرجسية بعد ذلك (يسمىها النرجسية). وهي تتضمن العودة إلى الثدي الأمومي. إذ «كل شاعر هو نارسييس»، هكذا قال و. شليجل، وإن ليلتذ بعشق الذات. وأنه مثل تولستوى ليظهر هذا الأمر: إن ذكرياته الأولى، حين اكتشف جسده وواجه العالم الخارجي بصرخاته، «لتوجز شخصية كاملة». إن نرجسي تولستوي كائن «متناقض الوجدان»، وذلك لأنه يحب ذاته ويكرها مرة بعد مرة. إنه يحتار بين «الأنا» و«مثالية الأنا». وثمة عدد كبير من شخصيات تولستوى تمتلك هذه السمات. فهي تأخذها من المؤلف، وإنها لتفرق في الحب بين اللذة الجسدية وبين الحنان. الذي هو حنان بالنسبة إل الذات: «ومن هنا نرى أن أبطال تولستوى وخاصة هؤلاء الذين أسقط نفسه عليهم بشكل مكثف. لا يستطيعون تحليل مشاعرهم في الحب من غير أن يستنتجوا أنه لا يوجد هنا سوى فئات من الذات. ولنفكر بالسوناتا الرائعة لكلوتزر»، ولنتأمل كذلك القدرة الكلية للفكر التي تطبع نفسها في إيدولوجيا الروايات، وفي «العمل السببي للأفكار»، وسنجد أنها ذات أصل نرجسي. فعدوانيتها ترتد ضد الروائي الذي يعذب نفسه. وهذا ما يحدث «أزمات أخلاقية مأساوية، وتصعيدات مشبوبة العاطفة». إن تحليل بودوان

ليسمح إذن بفهم علم النفس وفهم سلوك أبطال تولستوى، ولكنه يسمح أيضاً (بعد ذلك رانك) بفهم العديد من الأعمال التي تعالج موضوع «الازدواج» (موسيه، أندرسون، هوفمان، جان بول، وايلد، موباسان، بو، دوستوفسكي): فهو يشترك مع الحوافز الكلاسيكية للترجسية، مثل الذاكرة، أو الخوف من الشيوخوخة، كما يشترك مع البطل الذي يعذبه ازدواجه: وإن الكتاب الذين اختاروا هذا الموضوع قد عانوا في حياتهم من الهلوسات، ومن ازدواج الشخصية، ومن العصاب، كما عانوا أحياناً العته. ذلك لأن «التكوين العدواني» للترجسية «يسقط نفسه في المزدوج» ويعطيه «هذا المزاج القلق والمفزع». وكما هي الحال عند فرويد، فإن التحليل النفسي عند بودوان وعند رانك يسمح بفهم بعض صعوبات معنى النصوص وتخفيضها. ولكن النرجسي يتحد عند الفنان مع الانكفاء على الذات، ومع «مكونات سلبية» أخرى تشكل «عقدة استقالة». وهكذا يستطيع الفن أن ينتمي في وقت واحد إلى «أخطر انكفاءات العصاب المرضي» وإلى «المطامح الانسانية الأكثر فريدة»: فالحالة الفنية تشكل «تعادلاً ثميناً للغاية وغير مستقر».

ترتبط النرجسية مع الاستعراض ذوقاً، ومع «عقدة المشهد»: ونموذج ذلك أيضاً هو تولستوى، أو روسو، فموضوع العري. أو الزينة الفاخرة. يفهم هكذا. وإن الأمر الثاني ليترجم الكبت، ولكنه يعبر أيضاً عن الرغبة في شد الانتباه. وينشأ العقاب عن هذا (أوديب، أوريون، وموضوع الرؤية المحرمة: أوريديس، بسيشيه). فالأظهار والاختفاء يتصلان بوساطة الكبت، تماماً كما هي الحال بالنسبة إلى النظر والمعرفة (فانسي، تحليل فرويد). ولكي يحصل فهم أفضل لـ «عقدة المشهد»، يحل بودوان «وعي» فيكتور هيجو (أسطورة العصور). وإن دراسة هذه القصيدة الخاصة لتتأسس على دراسة الرموز من خلال مجموع أعمال هيجو. التي نشرها المؤلف فيما بعد)، وذلك لأن «عمل الفنان يجب أن يكون منظوراً إليه بوساطة

التحليل بوصفه جسماً حياً، يعد كل جزء فيه من وظائف المجموع ولا يدرك إلا به. وهذا يعني أنه لا يمكن تحليل قصيدة من القصائد تحليلاً عميقاً من غير العمل الكلي للشاعر». فالمنهج يقوم على تحليل «كوكبة من الأفكار». وإذا كان الموضوع المركزي للقصيدة هو قاتل الأخ، فإنه يتناسب مع «عقدة مهمة لهيجو»، الذي كان في السنوات الأولى لحياته يتنافس مع إخوته وأخواته. وإن هذا الذي كبت بعد ذلك، قد ترك «أثاراً عميقة غير واعية». ففتكور هيجو (هان الاسلاندي، كانيمودو) يعكسون صورة الطفل المشوه الذي كان يخاف أن يكونه. وإن الغيرة من إخوته لتوجد في عدد من القصائد، حيث ينشأ الشعور بعقدة الذنب، والذي يظهر في «الوعي» مرتبطاً بحافزين مهمين هما «المطاردة» و«العين».

إن حافز المطاردة «محمل بطاقة عاطفية قوية». وإنه ليوجد في العديد من القصائد («عقاب الخوذة»، و«ملك غاليس الصغير»، و«قاتل الأب»، في أسطورة العصور). وإنه ليوجد في وقت واحد مرتبطاً بالعقدة الأخوية والأبوية، وإنها لحافز يعبر عن تناقض وجداني أكيد (ومن هنا تنشأ الحاجة إلى الأطروحة المناقضة)، ولقد ينصب أحياناً على نابليون، وأما «المكون السلبي» للشعور، فسيثبت على نابليون الثالث: فهيجو هارباً يجد السعادة، وبهذا يكرر نموذج شاتوبريان، ويعبر هرب كابين عن «الهرب أمام الأب» وعن «العقاب الذاتي غير الواعي». وأما ما يخص رمز العين، فإننا نعلم أهمية موضوع الرؤية عند هيجو. فذكرياته الأولى ترتبط بالنظر، وبالأستعراض، وإنها لتنتج «نسقاً من الأفكار مصاحباً بانتظام لعقدة الذنب والقلق»: إن «المكون السلبي ليتسامى في المسرح وفي الغنائية الذاتية». وكذلك فإن «المكون الإيجابي ليتسامى من جهة في الخيال المرئي، كما يتسامى من جهة أخرى في القلق الغيبي». وإن إرادة القوة التي تعوض الشعور «بالنقص البدائي»، لتختلط «بغريزة الرؤية، المرتبط بالجنس الطفولي، والفضول



المحرم»، وبالمعرفة. «فالقوة» و«المعرفة» هما سمتا العين. وإن بودوان ليجد لها حضوراً في عدد من الشواهد الموسومة في الحالتين بشعور من عقدة الذنب، والعقاب (ترتبط تلعين بالثأر). تقوم تقنية تحليل الشعر إذن على «ربط حوافز القصيدة الأساسية فيما بينها»، وترجمتها، والعثور على العقد الأصلية تحت موضوعية الشاعر ووعيه الباطن، الذي لا تتطابق عقدة الذنب عنده مع «خطأ واقعي»: ففي عيون الأنا المثالي «تكون الغرائز المقهورة مذنبه بنفس القدر الذي تكون عليه الأفعال التي كانت ستنتهي إليها لولا أنها قهرت». ولقد نعلم أن الأنا المثالي يكون عنيفاً بمقدار ما يكون القمع قوياً... وهكذا يكون الندم كثيفاً عند العصبيين المصابين بوسواس مستحوز، كما يكون عند المذنبين الحقيقيين». ولقد سمح التسامى الفني لهيجو أن ينجو من العصاب الاستحواذي.

إن التحليل النفسي للفن يظهر نفسه إذن قادراً على إعادة بناء «مكونات العمل» ليس عن طريق المخطوطات (وهذا هو موضوع منهج آخر)، ولكن عن طريق السيرة: ثمة انطباع حديث يجعل «عدداً من العناصر المستعارة من الماضي تهتز، كما يهز الوعي الباطن وإن كان عميقاً». ويتشكل حول هذا المثير المرتبط بالعقد، جسم العمل. ولذا يجب على التأويل في التحليل النفسي أن يتكون حول هذا المثير. فالعمل ليس فقط «تعبيراً عن العقد»، ولكنه أيضاً استجابة لوضع حاضر، أو حديث، وأنه «ليجهد في استيعابه» وهو من أجل هذا يقيم «بينه وبين العقد الموجودة علاقات متناغمة وغير متوقعة». وإن تحليل بودوان، الذي ينصب في هذه الحالة على قصيدة وعلى شاعر (قام بتحليله تحليلاً نفسياً) ليكون سعيداً على وجه خاص، وذلك لأنه ينجو كما ينجو العمل الفني نفسه من المكان العام للإنكفاء.

ولقد تم تكريس الجزء الثاني من هذا العمل المهم «للتأمل»، أي لرد الفعل «شبهه الواعي» للقارئ، والذي أهمله النقاد إلى الآن. فالمنهج هو منهج اشتراك الأفكار الكاشف عن الوعي الضمني، وذلك بشرط معرفة الشخص الذي يشترك، أي بتحليله: إن المريض «يشترك في عمل فني بدلاً من أن يشترك في حلم». وثمة سلسلة من الملاحظات عن الحالة الموضوعية إزاء الأعمال، تقود إلى «نتائج»: يبدو العمل مبنياً من الرموز التي يختارها المتأمل نفسه. ولذا، فإن العمل يعبر من أجله عن عقده الخاصة. وسيكون هذا اعتقاداً بأنه المؤلف، أو بأنه حلم فيه». وأما القراء، فإنهم يحققون بوساطة العمل ميولهم غير الواقعية، وسيسقطون فيه صراعاتهم وحلولهم (ومن هنا ينشأ انطباع بالمتعة). والمشكلة الأساسية هي مشكلة الاتصال بين المؤلف والقارئ، وذلك «على مستوى الوعي الضمني»: يحصل الاتصال خاصة عندما يحتوي العمل على «صور نموذجية للعقد البدائية» إذن المشتركة بين الجميع». ولكن المتأمل يسقط في العمل أيضاً عقداً وصراعات شخصية لا علاقة لها بعقد الفنان وصراعاته.

وتشير هذه الدراسة إذن إلى القرابة بين الفن والحلم: إن العمل «يدفع إلى الحلم»، أي إنه يشرك صوراً وأفكاراً. ولكن لا يضيع أصلهم عن النظر. وإنه «ليعطي ويأخذ من غير توقف»، وذلك لأنه يحدد «حقلًا محدوداً للوعي». وأما القارئ، فهو مدعو إلى خليط من الانبساط والتيقظ، ناتج عن «الإيحاء» (يعد الإيقاع واحداً من الطرق الأكثر بدهية لهذا النوع من التنويم المغناطيسي). إن الصور الفنية، كما في الحلم، تخضع إلى قانونين أساسيين للتكثيف والانتقال. وهذا يعني أنها من جهة أولى، تكثف في رؤية واحدة عدداً من حقائق الواقع المشكلة للعقدة. كما يعني، من جهة أخرى، أنه قد تختفي، في هذا التركيب، بعض العناصر خلف عناصر ثانوية، تتلقى الذبر عوضاً عنها، وذلك تحت تأثير الكبت. ويوجد التحليل

النفسي بعد ذلك الفكرة الأروسطية عن التنفيس، والتطهير، والتسامي. ولذا، فهو يدرس عند الإنسان وفي العمل «التراكمات» و«اسقاط الحمولات» ذات الطاقة العاطفية. غير اختلاف الفن عن الحلم يكمن في أن الفن يسقط المتخيل على الواقع، وأنه يصل نفسه مع الآخرين، ويجعلنا نخرج من أنفسنا» فهو يتسامى بوصفه وسيلة للتعبير، ولكنه يتواصل.

إن هذه الدورة التي يقيمها المنحى الجمالي، لتؤسس النقد: «إن العمل الفني ينقل لغة ويعلمها». ولكن هل ينقل صوراً؟ نعم، ولكن صور الكاتب وصور القارئ لاتلتقي، وذلك لأن الاتصال لا يكون كاملاً أبداً. فهو ليس انتقالاً من لاشعور إلى لاشعور. ولكنه يصبح كذلك في المنطقة «البدائية من الوعي الباطن الجماعي»، والذي يعبر عن نفسه رموزاً وأساطيراً. وإنه ليمكث في الوعي، ذلك الذي يميل التحليل النفسي إلى إهماله. ولقد أرادت السريالية أن تكتفي بالمستوى الأول، مقدمة «مادة جميلة» تبقى ترجمتها بحاجة إلى التنفيذ. وإن اللجوء إلى الأسطورة، ليس هو الآخر دواء ناجعاً: إذ يجب «العيش فيها ثانية وإعادة ابداعها مرة أخرى»، وذلك بعد أن يلقاها المرء، ليس في ثقافته، ولكن في وعيه الباطن، وبشكل «يعطي فيه نسغ الأعماق حياته إلى التجريد نفسه». ويوجز بودوان عندئذ خط سير الفنان: «إن المبدع، بعد فترة غاص فيها عميقاً في التعبير الصادق عن مشاعره الأكثر حميمية، يصادف مقاومة غير متوقعة، وينتهي إلى طريق مسدود لايسطيع أن يخرج منه إلا بالعثور على صيغة لفن أكثر موضوعية وأكثر شمولية: وتبدو حينئذ هذه الموضوعية بوصفها خلاصاً حقيقياً». وعلى العكس من ذلك، إذا كان شيلر قد هجر خلال أزمته طويلة، الابداع الشعري، فذلك لأنه لامس حوافز غاية في الموضوعية الحميمية». وعندئذ نجى فيما بعد، في دون كارلوس، من السأم الأوديبي رافعاً نفسه إلى مستوى «مأساة سياسية ذات فائدة عامة».

إن العمل مصنوع من الرموز. وإن الرموز لتجمع عناصر «بدائية، وغريزية، وطفولية» ثم تجمع عناصر «مستعارة من الحياة العاطفية الشخصية»، وإنها لتجمع أخيراً عناصر عليا ذات نظام أخلاقي، واجتماعي، وفلسفي وديني». و«هكذا نجد أن هيجو في قصيدة «الوعي» يصب على الفكرة الأخلاقية التي هي موضوع القصيدة، طاقة مختلف العقد التي فككها تحليلنا في هذا الكتاب». وهذا يعني أن النقد يجب إذن أن لا يبحث عن معنى عمل من الأعمال فقط في «العقد»، ولكن أيضاً في «الانزياحات» و«التساميات». ولأ يَكُنْ ذلك، كما أشار بودوان بحق، فإن «كل الأعمال ستستقاد إلى بعض النماذج المتطابقة دوماً» (أوديب، الإخصاء، إلى آخره). ويجب على المرء أن يقرأ في صيرورة الإبداع الجهد «لإحراز غلبة على العقد والجهد لتفسيرها». وهذا هو «التسامي»، أي أن «الجميل هو المرغوب عندما يكف عن أن يكون مرغوباً فيه، لكي يكون، مع البعد، موضع تأمل».

ويدرس بودوان في «انتصار البطل» ست عشرة ملحمة، وذلك لكي يتعرف إلى سيناريو بدائي، وأسطورة أصلية، و«صورة مجردة، هي صورة بيرسيه إذ يقتل التنين لكي يحرر أندروميد». وإن كل استرجاع لهذا السيناريو «ليتسامى به» من غير أن نعرف وعي الفنان الباطن؛ ولكننا نحزر أن «العناصر الشخصية» تطيل المعطيات الجمعية. «فالجنة الضائعة» نفسها «عند ميلتون أعمى، لاتكون سوى شيء واحد مع النور الضائع». وإننا لنرى أن قراءة موزونة للتحليل النفسي تمهد لنا هج أخرى، من غير أن تفرض إقصاء ما.

### شارل مورون والنقد النفسي

3

وإن هذا هو ما يفكر فيه مورون أيضا، والذي يبدو أنه يتابع عمل بودوان (الذي يستشهد به في التحليل النفسي للامرية). وكان يوجد قبل هذا الناقد «ادغار بو المشهور، دراسة في التحليل النفسي» لماري بونابارت (1933)، كما كان المأسوف عليه «فشل بودليير» للأفورغ (1931).

إن عمل مورون الذي يجب أن يوضع في الموضع الذي يستحق، أي الأول، ليحتوي على ثلاثة أقسام. فهناك، في المرحلة الأولى، بحوث متروكة؛ فبالإضافة إلى كتب في علم الجمال نشرت في لندن («الجمال في الفن والأدب» 1927، «علم الجمال وعلم النفس» 1935)، نجد الأعمال الأولى في التحليل النفسي، «مالارميه المظلم» (أعيد نشره عند كورتية في عام 1968)، «نيرفال والنقد في التحليل النفسي» (منشورات Cahier du sud، 1949)، «الوعي الباطن في عمل راسين وحياته» (1975)، «النقد والتحليل النفسي لعمل ميسترال» (1953)، «مدخل إلى التحليل النفسي للامرية» (1950 - 1963، النص الفرنسي 1968). ثم جاءت الأطروحة الكبرى التي أقامت المنهج بدقة («من الاستعارات المستحوذة إلى أسطورة شخص، مدخل إلى النقد في التحليل النفسي» (بودليير، نيرفال، مالارميه، فاليري، كورني، موليير. 1963). ثم جاءت التطبيقات بعد ذلك: «النقد النفسي للجنس الهزلي» (1964) «بودليير الأخير» (1964). «شخصيات فيكتور هيجو» فيكتور هيجو الأعمال اكاملة جزء 2، منشورات Club Francaise du livre، 1967). «فيدر» (1968). «مسرح جيروود» (1971).

يطرح مورون في مدخله إلى التحليل النفسي للارميه (الطبعة الأولى 1950، ومزيدة 1968)، مبدأ أهمية «الحدث» الذي قد يتم نسيانه: عندما كان عمره الارميه خمس عشرة سنة، كان يتيماً. فقد ماتت أمه وهو في الخامسة من عمره، وماتت أخته وهو في الثالثة عشرة. ويقود هذا الحدث إلى شرح حياة الشاعر وعمله: «يجب تحديد دور هذه الهزة الوجدانية الأولى، واكتشاف الأشياء والرموز، ومتابعة خيط الأفكار المشتركة. وباختصار، يجب دراسة شبكة عقدة المشاعر والتعابير التي كان موت أخته يحتل فيها المركز الوحيد في المكانة على الأقل». وحينئذ، يجب العودة إلى «التحليل النفسي»: لدينا صدمة من جهة أولى، ولدينا في القصائد، من جهة أخرى، «شبكة من الصور الثابتة... التي تتكرر من قصيدة إلى قصيدة» (وهذه الصور هي التي درسها مورون من منظور الموضوع في كتابه «الارميه المظلم»، 1941). ويجب أن تتميز هذه الشبكة من المشتركات (مثل الضفيرة، الشعلة، شمس الأصيل، النصر العاشق، الموت) من «هندسة ثابتة» تتخفى تحت هذا «المعنى المقروء»، والتي تصدر عن الوعي الباطن. وإننا لنجد إذن تمييز التحليل النفسي قائماً بين «المضمون الظاهر» و«المضمون الباطن». وإذا كان ذلك كذلك، فإن ما يبحث عنه مورون إنما هو منهج في التحليل يقف بين نقد سانت بوف ونقد لافورغ القائم تماماً على التحليل النفسي (عن بودلير)، وكذلك نقد ماري بونابارت (عن بو). وهنا تطرح مشكلة التحليل نفسها، إذ ستنقصها الأسرار التي تحمل إلى المريض خلال عدة سنوات كتلة عظيمة من المعلومات. وسينقصها التحويل أيضاً. وكما هي الحال بالنسبة إلى فرويد أو بدوان، فإن مورون يعترف إذن بأن على المرء أن يرضى «بتأويل المادة الأدبية» مستخدماً تجربته الطبية أو العلمية: أي القصيدة، وبعض المعلومات في السيرة. وأخيراً، فإن الناقد الأدبي «لا يبحث عن تشخيص للمرض» بتجوازه للعوارض كما يفعل المحلل: إن «العرض» في النقد الأدبي يكون العمل الفني. وإن المهمة لتختصر إذن في تشكيل شبكة

الصور، والمشتركات، و«الأنساق الاستعارية»، ثم في اكتشاف «العقدة التقليدية» من تحت كل ذلك. وما كان هذا هكذا إلا لأن الرمز يعبر في وقت واحد عن «الوعي الباطن التحتي» وعن «الروحانية العليا». وستكون خاتمة الكتاب هي أن «استحواذ الأم والأخت الميقتين لا يحدث عمل مالارمية، كما أنه لا يشرحه أيضاً، ولكنه يعينه، ويثبتته من الأسفل». فإذا كانت القصائد كلها مختلفة، فإن الوعي الباطن رتيب. ومع هذا المركز يبني، ويسحر ولكنه لا يحول دون تحرر الفنان (الذي إذا كان عبد استحواذه فسينتحر). وهكذا، فإن القصيدة ستذهب «من الاستحواذ إلى الأسلوب». وكلاهما ثابت، وخالد، مروراً بالتحول، ومن خلال الدوام الزمني لجملها. وبالتأكيد، فإنه ليس الاستحواذ، ولا المعنى المدرك عقلاً يشرحان كل شيء. ولكن ماذا سنريح إذا تجاهلناهما؟ إن هذه الدراسة التي تابعت تطور الاستيهامات عند مالارمية من قصيدة إلى قصيدة من غير أن تنظر إلى العمل بوصفه وحدة زمنية (وهذا إجراء اتخذ مؤخراً بخصوص «بودلير الأخير») قد مارست سيطرة هائلة وولدت، كما يظهر هذا غالباً تاريخ النقد، كتباً من غيره ما كان لها أن تكون عايدا سيلبير، وحتى ريشار الذي إذا كان ينقد مورون في أطروحته، فإنه أيضاً لا يعيد بناء كوكبات من الصور).

لقد ركز شارل مورون منهجه بدقة في كتابه الضخم «من الاستعارات الاستحواذية إلى الأسطورية الشخصية : فكتابه «مالارمية المظلم» حمل إليه الاستعارات، بينما حمل كتابه «التحليل النفسي لمالارمية» الأسطورة الشخصية. ويبقى اقتراح التركيب بين الأطروحتين.

إن التحليل النفسي للنقد مستقل عن العصر، وعن الجنس الأدبي موضوع النظر. ولقد يعني هذا أن نقطة التطبيق فيه شاملة. ولكن إذا وضعناه في جغرافية النقد، التي تعدد بوسط الكاتب وتاريخه، وبشخصيته وتطورها، وبلغه العمل،

فسنجد أن هذا النقد يضع نفسه في القسم الثاني الذي يشكل جزءاً منه. وذلك لأنه يتجه إلى شخصية الكاتب غير الواعية. ومن جهة أخرى، فإن النقد التقليدي لا يدرس الوعي الباطن، بينما يدرس التحليل النفسي الوعي الباطن المرضي. ويبحث النقد المضموني (ريشار، بوليه) عن «أنا» عميقة، ولكنه يظل متميزاً من التحليل النفسي، وتكون هذه «الأنا» في النتيجة سيئة التحديد. ثم إن التحليل النفسي للنقد يرى أن التحليل النفسي علم ضروري للمعرفة وللإستعمال، ولكنه لا يتطلع إلى الشفاء، ذلك لأنه يستخدم التحليل النفسي لكي يربط علماً بفن. ولذا فهو يبحث عن «الأفكار غير الإرادية المشتركة تحت البنى التي يريدها النص». وإنه ليشكل بهذا شبكة غير مرئية. وإن الضمانة التي يعطيها «علم حقيقي» لتسمح بسبر حدود الوعي والوعي الباطن، وذلك بالغوص في هذا الأخير.

وسيكون نظام التحليل كما يلي: يؤدي التركيب الشكلي للنصوص إلى شبكات المشتركة وإلى مجموعات الصور الاستحواذية وغير الإرادية. وإننا لنبحث بعد ذلك من خلال العمل، عن تغيرات هذه البنى التي ترسم صوراً أو أوضاعاً، وذلك بشكل يساهم في إبراز «أسطورة شخصية». وإن هذه الأسطورة الشخصية لتحيل إلى الشخصية غير الواعية للكاتب. كما تحيل إلى وضع مأساوي داخلي، تغيره من غير انقطاع عناصر خارجية، ولكنه وضع معروف ومستمر دائماً. وإننا لنبحث أخيراً (ولكن الحال كان على العكس من ذلك في الـ «مالارمي») عن المماثلات لحياة الكاتب. وإذا تأملنا، فإن المنهج يقترح إذن تركيباً يجمع بين أبغة الوعي ولغة الوعي الباطن. ذلك لأن اللغة تؤلف بين منطق متعدد في آن واحد، مثل النقد الذي ينتقل هو نفسه من الفرويدية إلى الأدب.

إن التحليل النفسي للنقد (لو كان الإجراء مستخدماً دائماً، لما كانت الكلمة، فيما يبدو لنا، ستستعمل إلا من قبل مورون نفسه) قد اصطدم بانتقادات نظرية.



هجينيت في كتابه (صور، 1963) عاب عليه علمويته. ودبروفسكي (لماذا النقد الجديد؟). رأي أنه يهدم استقلالية العمل (وهذا نقد يمكننا أن نوجهه إلى أي منهج بنيوي). وذلك لأن مورون يخلط إرادياً مختلف أعمال مؤلف من المؤلفين في عمل وحيد، ويهدم الجنس. والسبب لأن مسرح راسين لم يعد مسرحاً، ولكنه غدا كابوس راسين. وعاب عليه أخيراً، أنه لم يعد يتصور العمل بوصفه مشروعاً يتجه نحو المستقبل، ولكن كما لو أنه كان إعادة تناول لموضوع وحيد.

ويبقى أن نقول إنه لا يصح الحكم على منهج من خلال افتراضاته المسبقة فقط، ولكن من خلال تطبيقه. وإننا سنظهر كيف يعمل إذن انطلاقاً من أمثلة ثلاثة، نستعيرها من هيجو، ورأسين، وجيروود. يؤكد مورون في «الشخصيات عند فيكتور هيجو» (1967) أنه ثمة ميدان تختلط فيه الرواية والمسرح، إنه ميدان الحلم؛ «إن الدراما في الحلم لتفترق عن الدراما الحقيقية في هذا، أولاً إنها ذاتية المركز وموجهة توجيهاً عاطفياً، وتقودنا هذه الفكرة مباشرة إلى النظر إلى البطل، الأناكي عند هيجو». فالبطل هو الشخص «الذي تتقاطع فيه كل العلاقات الفعالة» (في الملك يمزح، ليس فرانسوا الأول، ولكنه تريبوليه، كما راه فيردي جيداً). إننا نباشر بتركيب الأبطال (تريبوليه، كازيمودو، فرولو)، ثم نأتي بعد ذلك إلى تركيب أبطال الحكايات الذي يكشف عن «الاستيهام التحتي». فالأناكي (أو القدر) يمثل «علاقة الأبطال بحكم من غير استدعاء ولاشفاعة يمكن تصورهما. وإنه ليلاحظ بوصفه «حضوراً مقلقاً، يحيل إلى «واقع غير واعي» [...] جبري على الرغم من أنه خفي، ويظهر إما من خلال انفعالات (الغيرة، الثأر)، وإما من خلال اسقاطات على الآخر (شخصية أو شيء محتوم)، وإما أخيراً، من خلال أحلام معاشة ومؤسسية (القتل الجماعي والمشروع، الاضطهاد، القصاص، التعذيب، الكهوف الجزائية، الحكم بالإعدام)». وعندما يكون ثمة التباس (عناية إلهية أو مصيبة، جافير

كلب حراسة أو ذئب، محب للعدل أو مجرم)، فإن هذا يعني أن الأصل الساخر يؤكد نفسه: التباين أو الأطروحة المضادة. «فالطم هو الذي يبدع الصور ويتحد مع الفكر الواضح». وما دام الحال كذلك فإن مورون يتابع التدبير الاستيهامي من خلال القصص الأولى، أي حوالي عام 1830، وذلك بدءاً من «لوكريس بورجيا» لى بورغراف في رواية البؤساء، وفي عمال البحر، وفي الرجل الذي يضحك، وإننا لنرى أن المنهج مهتم بالتكوين، وبسلسلة الأحداث، وإن كان في بعض الفترات يطابق المؤلفات لكي يستخرج منها بنية مشتركة. إذ يجب على «البطل والبطلة أن يهبطا نحو موت قدرى». وإننا لنجد أن رواية «نوتردام دي باريس» توحد «نظامين من أنظمة الفكر: الاستيهام والوثائق»، وإننا لنعبر من نوتردام إلى باريس من خلال الفضاء وعلم النفس (المتدين والعلماني): فالأثر التذكاري ينظم كوارث الأبطال. وإننا لنراهم جميعاً في عزلة، كما لو أن جراحاً قديمة جداً قد استيقظت عند مبدعهم. وإننا لنلاحظ، من عمل إلى عمل، أن الشخصيات «تنتظم بحسب مظهر نفسي ناتج عن الصراعات القديمة جداً». فتكوين البؤساء إنما تم «من الداخل إلى الخارج»، وذلك انطلاقاً من «حلم مركز وموجة»: فالأوضاع المأساوية تلد من توتراته الداخلية. وإن هذه لتتطلب شخصيات. وإن ذكريات المؤلف، سواء كانت ملاحظات أم قراءات، لتقدم ذلك «(هنا يعتمد مورون على الدراسات التكوينية لكل من دورديه وروبير عن المخططات). ويتجه الاستيهام نحو خاتمة مأساوية، ولكن ثمة «آلية دفاعية مضادة للقلق قلبت هذه النهاية السوداوية لكي تحولها إلى نصر وتعظيم». وإذا كان البطل في عدد من المؤلفات يعتزل، ويضحى، ويكفر عن ذنبه، فذلك ينقذ من الأناكي زوجين شابين أو لكي ينقذ أطفالاً. ولقد نرى أن القلقين الأساسيين هما «الخوف من الآخر» و «الخوف من الشر». وإن هذه النتائج التي نحظى بها انطلاقاً من النص وحده، لتوضع في مواجهة سيرة حيا هيجو: كان يمكن له أن يقع ضحية غياب أمه خلال أربعة عشر شهراً، وهو لم يتجاوز من

العمر ثماني سنوات. ولقد بين التحليل بالفعل، خلال السنة الأولى من حياة الطفل، أن هذا الغياب يستطيع أن يحدث أضراراً عظيمة: «أعتقد أن هذه الوقائع هامة، يكتب مورون- وإنها لتكتفي في شرح قلق الذهان الهذيانى أمام قدر عضال». وهذا ما سيكونه «الجدل الذي يوحد بين حياة وإبداع من خلال الحلم». وإنها لنتيجة يستنتجها مورون بعد أن قص أثر الأزمات الكبرى في حياة هيجو (المراهقة، موت الأب، هجران أديل). وبمقدار ما تكون شبكة الاستحواذات المتجسدة في شبكة الشخصيات مدروسة بدقة، وأصالة، وقدرة، فإن هذه الفرضية الأخيرة تستطيع أن توضع موضع شك؛ ولكن لايعتد بهذا كثيراً بالنسبة إلى معرفة العمل.

تضع الدراسة عن «فيدر» (1964 - 1965، والمنشورة في عام 1968) مسلمة مفادها أن «المأساة المسرحية استيهام. وأنها تمتلك معنى وجدانياً برهن عليه المؤلف وكذلك يجب أن يكون في نظر المشاهد». ويقدم المشاهد إذن «فضاء ذهنياً» تمثل فيه «مأساة نفسية»، وبالطبع شيء آخر. ولكن ما يهتم به مورون، الذي لايقصي مع ذلك أي شكل من أشكال النقد، إنما هو أصل العمل في داخل الذات، والذات غير الواعية. ومن هنا فإنه يجب على المرء لكي يكتشف الأسطورة الشخصية (أو الاستيهام) لراسين، أن يباشر النظر في الأوضاع المترابكة. فالبطل المركزي في كل من «باجازيه» و«أندروماك» و«بريتانيكوس» يهرب من «امراة مستحوذة، وغيورة، ومسترجلة»، ويرغب في «امتلاك كائن ضعيف، من غير حول، وأسير»؛ وإننا لنجد خلف هذه الأوضاع الاستيهام نفسه: إنه عقوبة الرغبة في العشق. ويدخل ميترايداد عنصراً جديداً، هو «عودة الأب» الذي يهيمن على حق الحكم والعقوبة؛ وما دام الحال كذلك، فإن القتل يصبح «اخلاقاً»، والاستيهام تكون له قصة. وإذا تمعننا، فسنجد أن بنية «فيشر» تنتج الترسيمتين، فالبطلة التي هي في الوقت نفسه غير محبوبة ومذنبّة توضع في عداد العاشقين المهجورين

(إيرميون)، و«إبوليت تتقصى ريسي وتبعد فيشر»: وإذا قمنا بالترجمة، فإن الاستيهام يكون «استيهام المراهق الذي لا يقوى على الخلاص من تعلق تم تجاوزه بالأحرى»، وأخيراً، فإن الأب الراسيني (على عكس الأب عند كورنيه) أب لا يعرف الحب ولا الشفقة: أداته في العقاب، أنه يعاقب «ذنب العشق» به «قلق الهجر» والموت في الوحدة. ولكن قلق الهجر سابق على الشعور بالذنب: «حين يهجركم الأب، فإنه يترككم من غير دفاع أمام الأم المستحوذة التي ورثت السلطة والتي نريد أن نعوضها بإمراة أقل قلقاً». وإنه ليضاف إلى هذا «ندم الهجر» الذي «يعزز الأديب»، غير أن هذا لا يمنع مطلقاً هذه الأسطورة الشخصية من أن تتواشج مع التقليد الأدبي والأساطير الجماعية.

وسيكون المثل الأخير مستعاراً من «مسرح جيروود». يعيد مورون بناء البنى المساوية من مسرحية إلى أخرى: إنه يأتينا مثلاً بوجوه نسائية رائقة، وأخرى مشؤومة تتصل بالكذب، والزنى والدعارة، وأنه ليقراً في العالم المتناغم «مأساة داخلية»، و«قاسماً مشتركاً» لكل ترسيمات الآثار المستقصاة من عمل إلى عمل. فالذات المنقسمة وغير المبالية والمتجهة نحو الواقع، والمؤثرة، والمثبتة على الأم والطفولة، إن ذاتاً كهذه لتتطور بشكل «يندر فيه جزء من الشخصية من غير هوادة بإبدال الحنان الأمومي بغرائز جنسية غير أخلاقية، وتكون في الجزء الآخر من الشخصية عاشقة أو عدوانية، وهذا الصراع الداخلي نفسي، وليس صراعاً اجتماعياً على الإطلاق». وهكذا يكون دفاع «الزوجين النقيين» نضالاً ضد القلق الصاعد. ويشير مورون إلى سمات أدبية، أنشأتها البنى، وبنتها الأطروحات التركيبية التي تبقى صحيحة حتى وإن اعترضنا على الهبوط إلى الوعي الباطن، أو اعترضنا على الفكرة التي «كبحها» جيروود بالعدوان الهتلري، مثل «الجنس» إلى درجة أن أعماله المنتمية إلى ذلك العصر كان يسمها «الهروب نحو اللاواقعية».

وتستطيع قراءة مورون أن تكون قراءة شخصية بالنسبة إليه. ولذا، فهي تستحق الانتباه، والتقدير، والتقليد أحياناً، وإن كانت الاستعارات المستحوذة تفرض نفسها بصورة أكثر بدهية من فرضية «الأسطورة الشخصية».

## التحليل النفسي للنص

# 4

يتساءل جان بيلمان نويل فيقول هل يمكن أن نقرأ، متخذين فرويد عوناً، مدونة «أدبية» ونضع المؤلف جانباً وننساها؟ إنه

ليرى هنا مستقبل البحوث في «التحليل النفسي للأدب» (الأدب والتحليل النفسي، 102-103). وأنه ليرى كذلك أن هذا المذهب الجديد يدعى «التحليل النفسي النصوي» أو «النص التحليلي». ولقد تساءل بيلمان نويل من قبل في مقال له فقال إذا لم يكن من الممكن إجراء تحليل نفسي لا للكاتب ولا لشخصياته فماذا يبقى غير «التحليل النفسي للنص»؟ «التحليل النفسي للحلم عند سوان» (مجلة شعر، عدد 1971، 8). وقد وضعه في كتابه «نحو الوعي الباطن للنص» منشورات PUF (1979). إننا سنفترض إذن وجود «وعي باطن للنص». لا يختلط مع الوعي الباطن للكاتب.

يحدد بيلمان نويل في «الحكايات واستيهاماتها» (منشورات PUF، 1983) بأنه يريد أن يراقب «كيف تترتب المثلثات الاستيهامية في الحكايات وكيف يأخذها القارئ أو المستمع على عاتقه». أما هي حالة الحكايات فلن يعيقنا كاتب نضعه بين معكوفتين، وذلك لأنها مجهولة. ويمكن مباشرة دراسة من هذا النوع عن طريقين: يتماثل الطريق الأول مع الطرق التي جئنا على دراستها. وأنه ليستلزم أن نطبق على النص «شبكة المتصورات والصور الفرويدية، فالحلقات السردية تمثل نوعاً من التجسيد لترسيمة معروفة جيداً. وإن التنكير الذي يسوس إبداعهم ليلجأ إلى إجراءات مبوية»، وهذا هو ما فعله جون بالنسبة إلى هاملت أو بالنسبة إلى

مارسيل موري، وهو الشيء الذي فعله سيمون فييرن بالنسبة إلى جيل فيرن، وهو أيضاً ما طبقه فرويد، إذ كان الأول، على «الغرافيدا» لجاناس. ولكن الناقد يلاحظ بأنه لم يعد ثمة شيء نربحه بمثل طريقة الشرح هذه: فالفرويدية لم تعد بحاجة إليها، وإنها أصبحت غنية بالمادة. وإن الأدباء ليعترضون بقولهم إننا سنكتشف الأسرار نفسها، والأوديب، والفرجسية، والفساد. ونأتي إذن إلى المنهج الثاني، أي إلى «النص التحليلي» الذي يريد «أن يظهر رغبة غير واعية وفريدة في نص فريد». ذلك لأن فريدة كل قارئ تلتحم مع كل نص، وإننا نلتمس أن نصل إليها.

إن ما يجعل هذا النوع من التحليل ممكناً، هو أن الرسالة التي تفترض وجود باث ومستقبل، حتى وإن كان أحدهما «غائباً أو مجهولاً، فإننا « نستطيع أن نصل إلى المعنى من جاذب واحد». وإن الناقد سيعمل على «أثار حقيقة التنظيم غير الواعي الذي يبعث الحياة في النص، وذلك لأنه يجند هذا نظامه غير الواعي بالذات». وإن «الآلية التي يستند إليها لتعتمد على قوة الأداء التي تخترق كالكهرباء» العبارة». إذ ثمة صوت داخل النص يقول لي: «ألا ترى، بأنك أنت الكائن هنا». وتؤلف في الواقع، قراءة «النص التحليلي» بين المنهجين: إنها تحليل طلاس الحكايات باتباع الصور. ثم يأخذ مرة ثانية إلزاماً للتحويل المرجعي التأويلات التفصيلية بطريقة موجهة. ولتأخذ على ذلك مثلاً «جميلة الغابة النائمة»: إن المنزل، والجرح، والنعاس، والعجوز، والجنبة المنسية، كل شيء يمكن أن يترجم إلى : إخصاء شراهة الرغبة الأبوية، القضيبي المتخيل للمرأة، إلى آخره. ولكن يبقى على المرء أن يعاود أخذ الحكاية ضمن بناء. وهذا ما يفعله بيلمان بعد مئة صفحة. وإنه هنا ليتعارض مع التحليل النفسي لحكايات الجنيات **The use of Enchantment** لببتيهيم، وينتقد فيها التأويل التعليمي: إن الحكايات، بالنسبة إلى ببتيهيم «تشكل تدريباً على الانفعال العادي».

وأما بالنسبة إلى الفرويديين الأوربيين ، فإنها تسمح للأطفال «بالاستيهام من أجل اللذة». وما يقرأ بيلمان في الحكاية ، إنما هو أميرة «لم تخرج من هذه الحالة غير المميزة حيث النفس تنبني [...] ، إننا لنكون تماماً بين اختلاط الجسد الأمومي لحياة باطن الرحم، وبين مجيء النرجسية المرتبط بتجربة الذاكرة، مع تلويناتها المذنبة لارتكاب زنى المحارم». وإننا لنكتشف، والحال كذلك، «لذة العضو» و «لجاجة القديم» ، ونجد في أنفسنا «عقدة ذنب نرجسية قديمة». وفي النهاية، فإن الناقد يريد أن يكون مستعداً «للقوة الاستيهامية» للأعمال المحللة، ويفكر «بالأريكة» حيث يقرأ على «الكنبة» وحيث «يعيد صياغة» قراءته صياغة أخرى: وأما ما تبقى من اللذة الأصلية، فيكون في تفاصيل التحليل.

تجب الإشارة، في ميدان التحليل النفسي المقتصر على النص، إلى أهمية عمل مارت روبير. فكتابها الأكثر كمالاً، والأكثر أهمية (ولكننا نعرف أعمالها عن فرويد وكافكا) يبدولنا أنه «رواية الأصول وأصول الرواية» (Grasset, 1972) (Gallimav, Collection. 1977). وإننا لنرى فيه كيف أن التحليل النفسي الفرويدي يستطيع أن يضع كشفاً ليس فقط عن عمل واحد، ولكن عن مجموع النصوص التي تشكل جنساً أدبياً، وذلك من غير أن يأبه في أي لحظة من اللحظات للوعي الباطن للروائي أو للروائيين (وسنرى في موضع آخر، بما أن الدراسة مركزة على ديفوى وسيرفانتيس، أنه كان من الصعب سبره). وينطلق كل شيء من اكتشاف فرويد الذي يعرضه في «الرواية العائلية للعصابيين» (نشر في عام 1909، ولكنه ذكر منذ عام 1897): ثمة «شكل من أشكال القصة البدائي. يكون وعياً عند الطفل، ووعياً عند الكبير العادي. وإنه ملاصق لعدد من حالات العصاب». وتحتوي بنيته على الإطار نفسه، والشخصيات نفسها، والموضوع نفسه. وهو مرتبط بمبدأ «الخيال نفسه». فالطفل، إذ يخيبه الأهل الذين أحبه، وصار من الجنة مطروداً،



يرى نفسه وكأنه طفل «لقيط، أو متبنى»: وهو إذ أضع أهله النبلاء، يشعر بأنهم هجروه، وصار «ابن الطريق». إنه، والحال كذلك، وحيد إزاء زوجين متناقضين، يفهما بالاحترام نفسه والفيظ نفسه». ويسمح له اكتشاف الجنس، في مرحلة ثانية، أن لا يأسطر سوى الأب، فهو ملك ووهم. بينما الأم، فتبقى من العامة وقريبة. وتمثل المرحلة الأولى مرحلة «الطفل اللقيط»، بينما تمثل المرحلة الثانية مرحلة «ابن الزنى». ويسمح هذا السيناريو بتحديد مجموع الروايات، لأنه يكشف عن «الأصل النفسي»، ويكشف أنه «هو الأصل نفسه». وهذا يعني إذن أن الرواية تنتج استيهاماً كان من قبل روائياً، ومن هنا فإنها تأخذ حوافزها الإجبارية كحرية متغيراتها الشكلية. وإنها لتريد أن تبدو «حقيقية»، ولكنها تريد أيضاً أن تنسحب من عالم مقلد أو مزعوم. ولذا، فهي تقدم بطلين: دون كيشوت الذي يحلم بوصفه طفلاً لقيطاً. إنه دون «العمر النفسي» لروبانسون، ابن الزنى الذي يغير العالم. ويكون هنا بالفعل كما كتبت مارت روبير، خط القسمة لتيارين كبيرين تستطيع الرواية أن تتبعهما. ولقد اتبعتهما فعلاً على طول تاريخها. وذلك لأنه، إذا أردنا أن نتكلم بدقة، لا يوجد سوى شكلين لصنع الرواية: الأول، ويتمثل في ابن الزنى الواقعي، الذي يساند العالم مع مجابته له مجابهة مباشرة. والثاني، ويتمثل في الطفل اللقيط الذي يتجنب المعركة هرباً أو حرداً لنقص في المعرفة ونقص في وسائل الفعل».

يتعلق الأمر في الواقع «بوجهتي نظر» عن تاريخ الرواية. وإنهما لتسطيعان أن تتبادلا في العمل عند المؤلف الواحد، ولكن «فيما يخص الأساس»، فإن الروائي الذي يلتزم إزاء العالم، يأخذ من «ابن الزنى الأوديبى»، وإن هذا لهو الذي يبدع عالماً آخر ويترك الصوت إلى الطفل اللقيط. ولقد وضعت مارت روبير في السلسلة الأولى كلاً من بلزاك، وهيغو، وسوى، وتولستوى، ودستوفسكي، وبروست،

وفولكنز، وديكنز. كما وضعت في السلسلة الثانية كلاً من سيرفانتيس، وسيرانو دي بيرجيراك، وهوفمان، وجان بوك، ونوفاليس، وكافكا، فالروائي، من جهة «يقلد الإله»، ويكون من جهة أخرى «هو الله نفسه». وتقرأ مارت روبير النصوص انطلاقاً من هذا النموذج الفرويدي سواء كانت حكايات الجنيات، أم أعمال الرومانسيين الألمان: «القصر» لكافكا، وهو «وطن من غير اسم وجنة ضائعة». ثم إنها تتناول فيما بعد روبانسون كروزو ودون كيشوت. وقد كان قلب التحليل منصّباً عليهما، وأما «الروبانسونيات والدونكوشوتيات» فكانت مقلدة. وستكون الرواية المعاصرة «مأخوذة كلها ضمن هذا الجدول «النعم» للعالم والـ «لا» للواقع الذي يمثل بالنسبة إلى كل عمل متميز ليس فقط ينبوعاً لجمهرة من الأفكار الجديدة، ولكن توتر الإبداع نفسه». ويدل هذا إذن أن تحليل مارت روبير لا يتجه نحو الوعي الباطن لبلزاك أو كافكا؛ إنها تجد في الإطار البلزاكي «ابن الزنى» الفرويدي، فهي تتابع المسيرة بكل ما في تفاصيل «الكوميديا الإنسانية». وإنها لتعود على العكس من ذلك، فيما يخص فلوبير، إلى نصوص أخرى لفرويد وتجد أثر «المشهد البدائي» في «مذكرات مجنون»، وهذا ما يتمم الرواية «الأسرية» فقرأه نص بالنسبة إلى مارت روبير تعني استخراج نموذج فرويدي، يجعل السيرة ذات فائدة.

## 5 التحليل النفسي للمؤلف

ومع ذلك، فإن روبير نفسها لن تقاوم الرغبة، وإن كان ذلك في الملاحظات، في تحليل فلوبيير تحليلاً نفسياً بعيداً عن رواياته، وإننا

لنفهم كذلك فهماً أفضل أن بعض الكتاب قد صمم لكتابة سير حقيقية في التحليل النفسي، أو لكتابة التحليل النفسي للسيرة. وإننا لنجد من هذا القبيل دومينيك فيرنا نديز في «الشجرة حتى الجذور. تحليل نفسي وإبداع» (منشورات غراسيه، 1972)، فلقد جاء كتابه بعد كتاب «بو» لماري بونابرت، وبعد «شباب أندريه جيد» لجان ديلي (منشورات غاليمار، 1956)، وبعد «هولديرلان والاب لجان لابلانسن منشورات PUF، 1961). ويقترح دومينيك فيرنانديز منهجاً وأمثلة ثلاثة (ميكيل أنج، موزار، بروسست). ولقد طبقه فيما بعد على أينشتاين أيضاً. وهذا يعني أن كل الفنانين يخضعون للمنهج (لقد أهمل مورون نفسه دراسات عن فان غوغ) كما بين ذلك فرويد بخصوص فانسلي، وكما فعل هذا ستيريا بخصوص بيتهوفن. وإن الهدف المقترح هو «الوقوف على الحوافز غير الواعية لسيرورة الإبداع»، و «معرفة التضامن العميق الذي يوجد بين حياة إنسان وإنتاجه الفني» فالكتب تخرج من «تجربة الطفولة». ويدرس كاتب السيرة النفسية في العمل «آثار الصدمة الطفولية»، ولكن الحياة والعمل يلدان من ينبوع وعي باطن، هو بينهما مشترك. وبهذا تكون كتابة السيرة النفسية هي دراسة «التفاعل بين الإنسان والعمل ودراسة وحدتهما التي يتم الامساك بها ضمن حوافزها في الوعي الباطن». وإننا لننتقل إذن من الطفولة، وليس من سن الرشد كما فعل سانت بوف. وننتقل من العمل وليس من مضمونه ظاهراً أو باطناً فقط، ولكن من أشكاله (الجنس الأدبي، المفردات). وهكذا

يكشف المرء عند بافينز «عصاب الفشل والعقاب الذاتي» بوصفهما «مصدراً دالاً». وكذلك يدرس فيرنانديز تكوين اللوطة عند جوليان غرين (التي يشوهها في قصصه ذات السيرة الذاتية): فالمعيار لم يعد هو «مثل هذا الرجل ينتج مثل هذا العمل»، ولكن «مثل هذا الطفل ينتج مثل هذا العمل». ذلك لأن الحياة والعمل يمثلان «بنائين لاحقين أقيما لكي يكونا ملجئين، بهما يتغير وضع طفولي لم يصعد تماماً، وبهما يكون تجنبه». وتحل الظروف الذاتية محل المشتركات الحرة في العلاج التحليلي. ويرى فيرنانديز، كما رأى ديلاي «أن الكتابة تمثل» نوعاً من العلاج، وذلك لأن ثمة تحويلاً يتم إجراؤه بين الروائي وقرينه. ومن المؤكد، أن هناك بعض الناس الذين خنقته طفولتهم (بو، بافينز، بايرون، ليباردي)، كما أن هناك آخرين انتصروا عليها. وتفسر السيرة الذاتية النفسية عمل الناس الأولين تفسيراً أفضل من تفسيرها لعمل الناس الآخرين. غير أنها قد تصطدم بنقص الوثائق. وأخيراً، فإن اختيار موضوعها الذي يقوم به كاتب السيرة النفسية يبقى غامضاً. وهذه الحدود الثلاثة هي التي يرى فيرنانديز أن منهجه يقف عندها، فيكمل بذلك منهج مورون. وهكذا نرى، منذ فرويد إلى عصرنا، أن الدائرة تبدأ دورتها دائماً من العمل إلى الإنسان، ومن الوعي إلى الوعي الباطن، ومن الناقد إلى الكاتب.

## علم اجتماع الأدب

تتعلق المناهج التي تم تحليلها حتى الآن، بالوعي الفردي أو بالوعي الباطن للكاتب. وتكمن أصالة علم اجتماع الأدب، في إقامة العلاقات بين المجتمع والعمل الأدبي ووصفها. فالمجتمع كائن قبل العمل، ذلك لأن الكاتب محدد به، فهو يعكسه، ويعبر عنه، ويتطلع إلى تغييره. وإنه ليجد بعد العمل، وذلك لأنه ثمة علم اجتماع للقراءة، وللجمهور الذي يصنع من الأدب وجوداً، ويقيم دراسات احصائية لنظرية التلقي. وليس القرن العشرون هو للذي اكتشف تحليل العلاقات بين المجتمع والأدب؛ فثمة نقاد في القرن الثامن عشر، كان من بينهم مدام دي ستايل، وتين، وثمة فلاسفة مثل هيغل، وماركس. وهؤلاء أرسوا مبادئ يتعلق بها كل التطور اللاحق عن وعي أو من غير وعي. ونجد في بداية القرن العشرين، وعلى خط الموازنة مع أعمال دوركهايم، أن لانسون يتساءل عن «التاريخ الأدبي وعلم الاجتماع» (مجلة الميثافيزياء والأخلاق، 1904). وأضحت، بعد فترة وجيزة، وفي نقاش سيطر عليه الماركسيون، مصادر هائلة، وانقسم علم اجتماع الأدب إلى عدد من الفروع، مثل النقد الاجتماعي الذي يدرس النص أولاً (1).

1- سجد قائمة عامة بالمصادر في «الأدبي والاجتماعي، عناصر من أجل علم اجتماع للأدب» بإشراف روبرت إسكاري، منشورات فلاماريون، 1970، ويمكن أن يتم هذه القائمة كتاب دوشية: «النقد الاجتماعي»، ناغان، 1976. وكذلك مصنف النقد الاجتماعي لـ (ف. زيم)، بيكار، 1985.

## I - المؤسسون

يهيمن جورج لوكاتش على كل علم اجتماع  
الأدب في القرن العشرين: أما السبب، فلأن  
الفلسفة كانت غالبية خلال زمن طويل على

جورج لوكاتش  
1885 - 1971

1

الاستقصاء الإحصائي أو الميداني. وأما كتابه النقدي الهام الأول، فقد كان «نظرية الرواية». وهذا الكتاب كتبه في عام 1914-1915، ونشر في برلين عام 1920، وترجم إلى الفرنسية عام 1963 (منشورات غونتييه) وإنه لسابق على المرحلة الماركسية لهذا الفيلسوف الهنغاري، وقريب من هيغل، وديلتاي، وماكس فيبر. ويحدد لوكاتش طريقة «العلوم الذهنية» ومنهجها: إننا إذ ننطلق من بعض السمات المميزة لفترة زمنية ما، كنا قد أدركناها بشكل حدسي، فإننا نبدع متصورات عامة، ننطلق منها «فننزل استنباطياً إلى ظواهر مفردة، مدعين أننا قد وصلنا بهذا إلى رؤية شمولية عظمى». وإن أخص ما يستعيره لوكاتش من هيغل هو «تاريخانية الفئات الجمالية». وإنه ليؤسس جدلية للأجناس الأدبية على هذا الأمر. فهذه تتصل بالمجتمع، وذلك لأن «نظرية الرواية» تؤكد أن «الشكل الروائي هو انعكاس لعالم مفكك». وإنه ليفترق، هنا، عن هيغل. وقد كان ذلك عن غير ريب بتأثير الحرب في عام 1914. تلك الحرب التي جعلته يكتشف الحاضر بوصفه مذبذباً، فينضم بذلك إلى كيركغارد. ولايتوقف هذا الكتاب، بشكل ما يزال نظرياً، عن ربط التطور الأدبي بالتطور الاجتماعي، وربط البنية الأدبية بلحظة «جدل تاريخية فلسفية». فثمة شكل أدبي كبير يتناسب مع كل مرحلة من مراحل التاريخ الاجتماعي.

ينقاد لوكاتش إذن إلى رسم مشهد عام للمجتمعات التي تقاسمت التاريخ.

فاليونان حضارة، الأجوبة فيها سبقت الأسئلة، وتناغمت فيها الروح فيها مع العالم، أي العالم المغلق والكامل، فتمة «إشكال مثالية غير زمنية» «تتناظر مع بناء» هذا العالم، مثل: الملحمة، والمأساة، والفلسفة. وهذه كلها تبرز «الإنسان الحي» عند هوميرو، والبطل المأساوي، كما تبرز الإنسان الحكيم عند أفلاطون. وعالم اليونانيين المغلق هذا، ستعيد نصرانية القرون الوسطى خلقه عند سانت توما، وعند دانتي، وبهذا تحل الرواية محل الملحمة، عندما يصبح معنى الحياة إشكالياً. وعندئذ، يخلف النثر البيت الشعر الملحمي، كما يصبح البيت نفسه غنائياً. ويظهر الفرد الإشكالي حينئذ في عالم محدث: «فالرواية هي ملحمة عالم من غير أرباب». وإن تفاهة نزعة البرجوازية الصغيرة لشخصيات ديكنز، إنما تأتي من أنها تمثل «النماذج المثالية لإنسانية مقادرة على التألف، من غير صراع داخلي، مع المجتمع البرجوازي» لذلك الزمن. وتحدد الرواية، في القرن التاسع عشر، للبطل أن يرفض تحقيقه في العالم لكي يحتمي بذاته، ويعتقد بأن الصراع مستحيل مع الخارج. وإن هذه الرواية لتمثل رواية الخيبة. فالاختلاف بين البطل والعالم، يظهر في شكله الأكثر شمولية ضمن الزمن: «إن عجز الذات عن تقديم براهينها الخاصة ليظهر بصورة أقل عبر المعركة العبيثة ضد بُنى إجتماعية خالية من الأفكار والبشر الذين يمثلونها، وإنه ليكون أكثر عمقاً وإهانة حين يظهر والذات من غير حول ولا قوة أمام مجرى الوقت الساكن والمتتابع». وأما في الملحمة، فإن الأبطال، على العكس من ذلك، لا يشيخون. ويجد الزمن نفسه مرتبطاً فيها بالشكل الروائي، ذلك لأن مضمونه هو البحث عن جوهر لا يمكن العثور عليه. ويرى لوكاتش، من غير أن يعرف بروسست، في الفعل الروائي «معركة قائمة ضد قوى الزمن»، وإنها لمعركة تبلغ أوجها في الانتصارات التي تحققها على الزمن. والعمل الرائع لهذا النموذج يتمثل بالنسبة إليه في «التربية العاطفية» لفلوير: «فكل ما يحدث يكون من المعنى مجرداً، ومفككاً، وشاقاً، ولكنه يشع في الوقت نفسه بنور أمل وذكرى». وإننا لنفهم

إذن، أن للثورات الجمالية في الواقع أسباباً تاريخية. ففي وجه عالم منفجر، لم يعد هناك عمل مغلق وكامل؛ ويُنهى كتاب «نظرية الرواية» نفسه عند صورة دستوفسكي، روائي «العالم الجديد». وقد هيا هذا العمل، الذي مازال هيجلياً، بعض الأدوات النقدية التي ستستخدم ثانية في الأعمال الماركسية للمؤلف. وقد كان ذلك من خلال تمثيل هذا العمل للبنى الأدبية بوصفها مرتبطة بالتطور الاجتماعي، ومن خلال «أخلاقية اليسارية» حسب التعبير الذي يستخدمه لوكاتش في مقدمته عام 1962. وإن هذا الكتاب ليبقى، بالنسبة إلى أولئك الذين لا يتبعونه، كتاباً جميلاً، ويعدونه وسطاً بين المثالية الألمانية ونقد ايورباخ.

إن المقالات التي كتبت ما بين عام 1934-1935، وجمعت في عام 1951، وترجمت إلى الفرنسية في عام 1967 بعنوان «بلزاك والواقعية الفرنسية»، لتشهد خصوصاً على تطور لوكاتش، لا سيما وأنها تعالج المدونة نفسها التي عالجها كتاب «نظرية الرواية». وكما سيقوله الفيلسوف في عام 1962، بخصوص هذا الكتاب الأخير، فإن «المناخ الذي كتب فيه هذا الكتاب كان مناخاً للخيبة الدائمة إزاء الوضع العالمي. وإن سنة 1917 فقط هي التي حملت إليّ حل القضايا التي بدت إلى تلك اللحظة مستعصية» فبين الشيوعية وفكر لوكاتش ثمة العلاقة نفسها بين الكتاب الذي يدرسهم والمجتمع في عصرهم. وإن الفكر النقدي لكتاب «بالزاك والواقعية الفرنسية» لينهل من نبعين: من تاريخ الرواية في القرن التاسع عشر، ومن الماركسية. فخلف تاريخ الرواية، يوجد معنى التاريخ. وقد عبرت عنه فلسفة تاريخ. وينطلق لوكاتش من رواية «التربية العاطفية» لكي يسأل عما إذا كان «غموض الأفق الذي أعطته رواية التربية العاطفية للمرة الأولى تعبيراً مناسباً هو قدر نهائي ومحسوم، أو هو نفق يحتوي على مخرج على الرغم من طولته؟». وإن فكره ليستند الآن إلى «النظرية الماركسية في التاريخ»، وهو «علم الحركة الصاعدة



والشاملة للإنسانية»<sup>(١)</sup>. وإن هذا العلم ليسمح بمعرفة الأعمال الكلاسيكية الكبرى، والتي تعبر عن «شمولية الإنسان»: إنها تمثل وجهاً مزدوجاً، وذلك لأنها تعكس «مراحل كبرى خاصة من مراحل التطور الإنساني»، ولأنها تقود «في الصراع الإيديولوجي من أجل بلوغ الإنسان في كليته». ولقد كان هذا هو دور اليونانيين، ودانتي، وشكسبير، وغوته، وبالزك، وتولستوي، وغوركي. فالعمل يعبر عن لحظة من لحظات الماضي، ويضطلع بدور في الحاضر، وإنه ليوجهنا نحو المستقبل.

ويظهر هنا الدور المحايث للعمل الواقعي، والذي هو في الوقت نفسه عمل كلاسيكي. وإنه ليمتيز بإبداع النموذجي الذي «يجتمع فيه وتلتقي كل العناصر الحاسمة والجوهرية إنسانياً واجتماعياً، لفترة من فترات التاريخ»؟ فالواقعية تتعارض مع التقسيم الفيزيولوجي والنفسي اللذين يختصران الأدب. فالأدب هو، في أن واحد، تعبير ونبوء. وما كان ذلك كذلك إلا لأن الإنسان حدث ومهمة يجب إنجازها، وإنه لداخل في «علاقة عضوية وثيقة مع المكونات التاريخية والاجتماعية». ويقدم الكاتب «إلى المجتمع الحديث المرأة الكاشفة، والتي نستطيع من خلالها أن نتابع اليوم طريق غولغوتا للشمولية الإنسانية». وإن هدفه هو الإنسان الذي «يرتبط ارتباطاً دائماً بحياة المجتمع، ونضالاته، وسياسته». فهو منه، وإليه يعود. وتحدد الرواية الواقعية بين متطرفين، هما: «الرواية ذات الأطروحة المستقيمة رأياً»، والمختصرة جداً، وبين رواية «لذات الحياة الخاصة»، «طريقاً ثالثاً» يتناسب مع عصر «يحدث فيه الثالث على شكل أزمة» تمضي من الخراب إلى النهضة. ويتميز الكاتب العظيم باشتهاء الواقع الذي يفوز على أحكامه الجاهزة، ومقاصده. وإن

---

١- ج. لوكاش، ماركس وإنجلز مؤرخان للآداب 1931-1935. الترجمة الفرنسية، الأرش، 1975.

لوكاتش ليحيل هنا إلى نص لأنجلز عن بالزك، كان قد استشهد به كثيراً. فبالزك وإن كان ملكي النزعة، إلا أنه قد نجح في تحليل بنى المجتمع في عصره. فالشخصيات تتطور، ليس تبعاً لإرادة المؤلف، ولكن تبعاً «للجدل الداخلي لوجودهم الاجتماعي والنفسي». وي طرح كل هذا قضية «رؤية الكاتب للعالم»: إن أفكار الكاتب تشكل المستوى السطحي، بينما توجد في المستوى العميق «قضايا العصر العظمى، وآلام الشعب» الذي يعبر عن نفسه من خلال الشخصيات. ولذا، فإن النقطة المشتركة بين كبار الواقعيين ولكننا نفهم أن الفنانين وحدهم هم الذين يعتقد بهم بالنسبة إلى لوكاتش هي «الانخراط جذراً في القضايا العظمى لزمهم، والتمثيل الذي لاشفقة فيه لجوهر الواقع الحقيقي». ويبقى على المرء أن يفسر كيف أن كل عظماء الكتاب لايتشابهون: إن الجواب ليقصر على ذكر «الفردية الفنية» بمصطلحات غامضة. وإن المقال المخصص عن الفلاحين عند بالزك ليظهر هذه المتصورات: تصف هذه الرواية ما كان ماركس قد تكلم عنه في الثامن عشر من برومير «بوصفه جوهر التطور لجزء بعد الثورة الفرنسية». وإن الناقد الذي يعرف التطور الاقتصادي والاجتماعي للقرن التاسع عشر، ليقابل الرواية مع هذه المعرفة السابقة، ويحكم على النص تبعاً لانطباقه على هذا النمط الذي يبرزه بشكل محسوس فثروة المحسوس إنما هي من نصيب الأدب، ومهمة النقد تكمن في العثور، لدى الأفراد وضمن المشاهد الروائية، على «القوى الكبرى التي تتحكم بالتطور الاجتماعي». ولقد أجرى التحليل ذاته انطلاقاً من رواية «الأوهام الضائعة»، أو حول «بالزك ناقداً لستندال»، وذلك في مقالين دجهما في عام ١٩٣٥: يمثل الروائيان الكبيران «طرفين دالين بين المواقف الممكنة إزاء تطور المجتمع البرجوازي في الفترة الواقعة بين عامي 1789-1848».

ومع ذلك، فإن أعظم كتب لوكاتش من منظور أدبي يبقى هو «الرواية التاريخية» (1937). الترجمة الفرنسية، منشورات بايوت، (1965). ولقد عبر لوكاتش بوضوح في مقدمة كتبها عام 1960 عن وجهة نظر منهجية: إنها تكمن في «البحث عن

الفعل المتبادل بين التطور الاقتصادي والاجتماعي وبين متصور العالم والشكل الفني الذي يشتق منه»، وإن هذا الكتاب الذي يتكون من أربعمئة صفحة لم يقدم إلا «بوصفه بداية، ومحاولة»، «ومشاركة أولية سواء في ذلك ما يخص الجمالية الماركسية أم الشكل المادي لمعالجة التاريخ الأدبي» ولكن لو كاتش، على عكس عدد من وراثي تراثه لم يحدد نفسه بحدود نظرية تزيينها بعض الأمثلة: فكتابه يتساوى قيمة إن في الدراسات التاريخية وإن في المبادئ المنهجية. وإذا كانت «الانقلابات الاجتماعية للزمنة الحديثة» هي السبب في صعود الرواية التاريخية وهبوطها، وإذا لم تكن «هذه القضايا المختلفة للشكل سوى انعكاسات فنية لهذه الانقلابات»، فإن تحليل الأعمال هو على الدوام جديد وخصب، رغمًا عن النظرية التي تسنده في بعض الأحيان أو تثقله. ويعد هذا الكتاب حجة على الرواية التاريخية.

يمثل جنس الرواية التاريخية أهمية رئيسة لكونه مُنتجاً من منتجات التطور التاريخي، ويتعامل مع التاريخ هو نفسه في الآن ذاته ويدرس لو كاتش أيضاً وبإدنى ذي بدء «الشروط الاجتماعية - التاريخية ليكون الرواية التاريخية». فالثورة و نابليون عملاً على اكتشاف معنى التاريخ، والشعور القومي، والوعي بالتحويلات الاجتماعية. ويكون هذا المجموع «الاساس الاقتصادي والإيديولوجي بالنسبة إلى رواية والترسكوت». فهذا الكاتب يصور في أبطاله مختلف القوى الاجتماعية، ومختلف صراعات العصر وخصوماته. وما من أحد أحسن ذلك صنعاً كما أحسنه هو. فشخصه الرئيسين هم، بالتأكيد، شخصون محتشمون، ومتوسطون، ومحدودون، ولكنهم يمثلون الطبقة البريطانية الوسطى. وتصف الرواية صدام المتطرفين. والبطل يساعد، في قلب الحكمة، على إقامة علاقات إنسانية بين القوى الاجتماعية المتعارضة، وبين المعسكرين: مثال ذلك ما فعله وافييري بين أاستيورات والناس في هانوفر. فقد كان قريباً من الحياة اليومية، والشعبية التي

لاتتوقف على الرغم من وجود الحرب الأهلية. «فالرجال العظماء» ثم الحاملون لواء التطلعات الشعبية، الإيجابية أو السلبية. وتنشأ بعض الأشكال الأدبية من هذه المعطيات: مثل العنصر الدرامي، وكثافة الحوادث، وأهمية الحوارات التي تجعل المتناقضات متقابلات، وهذا يعني إذن أن الأزمة التاريخية العامة تحتم الأزمة الظاهرة بين الشخصيات. ومن هنا، فإن ما يكون الرواية ليس هو تكديس التفاصيل التاريخية الصغيرة، ولكنه بالعمق الذي تعاش الأزمة من خلاله. ولذلك فإن الرواية لاتستدعي فضولاً بحثياً، ولكنها تساعد على العيش ثنائية «فترة من فترات التطور الإنساني». وهكذا نجد تولستوى، إنه لايسرد تفاصيل الحرب، وإنما يختار بعض المشاهد لكي يعطي معنى «لكل الحالة الروحية للجيش الروسي وللشعب من خلاله». وعندما يريد أن يصف نابليون، فإنه على العكس من هذا، يخرج عن الرواية ويهجر «وسائل التعبير الأدبي»، ويستعين بالوسائل العقلية للدراسة، بينما يجب إظهار الواقع التاريخي بشكل فني. وهذا يعني أن النظر قد اتجه إلى الأبطال بوصفهم كائنات فردية لاعلاقة لها بغيرها، كما يعني أن عظماء الرجال لايتظهرون إلا في اللحظات المهمة فعلاً، أي بوصفهم شخصيات ثانوية في الرواية؛ فتكون صورتهم في أحسن صوت، كما يكون الوهم كذلك.

ويمطلع لوكاتش بعد ذلك في عمل سكوت على حضور مجموع الفئات الشعبية، وعلى «الحياة الوطنية كلية»: ويظهر سمته الشعبي الصارم في النظر إلى الصارم في النظر إلى «الأسفل» بوصفه القاعدة المادية والتفسير الفني كما يحصل «في الأعلى». ومن جهة أخرى، فإن سكوت يعد مدافعاً عن التقدم، وذلك لأنه أعطى «حياة شعرية إلى قوى تاريخية، واجتماعية، وإنسانية، جعلت من حياتنا المعاصرة، عبر تطور طويل، ما هي عليه، وصيرتها كما نعيشها». ومادام الحال كذلك، فإن الناقد يمضي نحو تفكيك النسق الاجتماعي لسكوت إلى طبقات: ثمة فئات عليا

سقطت، باستثناء «بعض أبطال التقدم التاريخيين مثل لويس الحادي عشر، وهناك ارسطوقراطيون ظلوا على علاقة بالشعب، وهناك البرجوازية الأنجلو - إيكوسية، ثم هناك الفلاحون «المستقلون والأحرار». وعندما حل سكوت الجماعات الإيكوسية، فقد عرف أن يُظهر، في أن واحد، عظمتهم البدائية وضرورة سقوطهم المأساوي بشكل بدافيه أن «ما كان عند مورغان، وماركس، زانجلز معداً ومبرهناً عليه بوضوح نظري وتاريخي، فإنه يحيا وينتعث بشكل شعري في أفضل روايات والترسكوت التاريخية». فالروائي يصور ما يبرهن أنجلز عليه. غير أنه يحذر مع ذلك من تحديث شخصياته في إطار قديم، كما عاب لوكاتش ذلك على الرومانتيكيين إذ فعلوه.

ويتجلى منهج لوكاتش أيضاً عندما يدرس تأثير سكوت على مانزوني، وبوشكين، وغوغول. فقصة هذا الأخير «تاراس بولبا» هي عمل فنان عظيم، ولكن عندما يبدع غوغول مشهداً درامياً، فإنه «يعرض كيف يدخل عضواً هذا المشهد المأساوي ضمن المجموع، ويعرف على الأقل كيف يجعل المرء يحس أن المقصود ليست الحالة الفردية، ولكن المقصود هو قضية أساسية لعدوى مجتمع بدائي مسته حضارة أكثر تطوراً تحيط به، وقضية مأساة سقوط ضروري لكل هذا التشكيل وهكذا، فإن كل إبداع تنوع إنما يُحكم عليه بحسب انطباقه على نمط، وانقياده إلى نظرية اجتماعية. وعندما يجد لوكاتش أن بوشكين فيتفوق بحق على سكوت، لأن الأمر لا يتعلق بغير الفن، وأن قهقهة التاريخ متطابق، فإن منهجه لا يسمح له بتبرير هذا الحكم. وبما أن الناقد، من جهة أخرى، يترجم فن الروائي إلى متصورات، ويحذف المحسوس الذي يصنع جاذبية الرواية، فإنه يجد، ليس «سكوت» أو «غوغول»، ولكن «ماركس» و«أنجلز». وإننا لن ندهش إذا كان فينيلي وهيغود حكماً لأنهما حولاً الوقائع التاريخية إلى «حكايات وعظية»، وذلك لأن

الرومانسية الملكية والرجعية أصابتهما بالعدوى. وأما ميرييه، فقد كان متذوقاً للتفاصيل التاريخية. غير أن خطأه يكمن في أنه لم يربط حوادث الحياة الخاصة لشخصياته «بالحياة الواقعية للشعب»، ولا «بالحدث التاريخي العظيم الذي كان عليه أن يمثل»، مثل القديسة باتيليمي في «وقائع حكم شارل التاسع». فستندال، وإن كان يجري نقداً عادلاً للمجتمع البرجوازي في عصره، إلا أنه لم يعرف أن يرى فيه «ضرورة تاريخية». وأما بالزك، فإنه الوحيد في جيل الرومانسيين الفرنسيين، الذي استطاع أن يجني درس سكوت وأن يتجاوزه: أما السبب، فهو تاريخي في ذاته، وذلك لأن سكوت عاش مرحلة بدافيتها مستقبل البرجوازية الإنكليزية مضموناً. وأما بالزك، فقد كان معاصراً لانقلاب حقيقي للقوى الاجتماعية. ويسمح تحليل ثورة ١٨٣٠ بفهم هشاشة المجتمع الفرنسي الذي ألهمه بكتابة «الكوميديا الإنسانية»، وهي رواية لتاريخ الحاضر: ثمة ضرورة اجتماعية دفعت بالزك، كما دفعت تولستوى إلى الكتابة. ولقد يعني هذا أن الجنس الأدبي «هو انعكاس فني خاص لوقائع خاصة من الحياة».

وإننا لنرى بروز اعتراض هنا: إذا كنا لانعرف الواقع التاريخي والاجتماعي إلا من خلال الرسم الذي تعطيه الرواية، فكيف لنا أن نغير الرواية، فبماذا تفيد الرواية؟ إن هذا الانعكاس يوشك أن يكون عبثاً، كما يمكن أن يكون كذلك انعكاس القمر على سطح الماء. وإن الكاتب، على كل حالة لا يستطيع أن يعرف الماضي إلا إذا «كانت البنية الاجتماعية للحاضر، ومستوى تطوره، وسمة صراعاته الطبقية، إلى آخره، تيسر أو تحول دون معرفة ملائمة لتطور الماضي». ويضع لوكاتش هنا بوضوح تفاعل الرواية الاجتماعية مع الرواية التاريخية: فالأولى تجعل الثانية أمراً ممكناً، والثانية تحول الأولى إلى «تاريخ حقيقي للحاضر». وإنه لايهم كثيراً أن نوجز هذا العمل الهام إلا لإظهار كيف أن منهجه يقود إلى عبودية النقد الأدبي

للمادية التاريخية وذلك بسذاجة غريبة. وقد كتب لوكاتش في خاتمة الكتاب: «إننا لانزال بعد من أن نقدر على النظر إلى النثر الرأسمالي بوصفه مرحلة من مراحل التطور الإنساني التي تم تجاوزها تماماً، والتي لا تنتمي فعلاً إلا إلى الماضي. وأما أن تقضي المهمة المركزية لسياسة الاتحاد السوفيتي الداخلية بالقضاء على بقايا الرأسمالية في الاقتصاد والإيديولوجيا، فهذا يظهر أن النثر الرأسمالي حتى في الواقع الاشتراكي لا يزال عاملاً يجب الاعتماد عليه، وإن كان قُهر وحكم عليه بالدمار النهائي». ولا يزال علم اجتماع الأدب، السجالي والنضالي، مفتوناً بقول ما هو كائن، ولكن أيضاً بقول ما كان يمكن أن يكون وبما يجب أن يكون.

جُمعت في المرحلة نفسها 1932-1940 الدراسات في كتاب «قضايا الواقعية». (نشر في ألمانيا 1971، وترجم إلى الفرنسية. منشورات لارش، 1975. وقد حملت هذه الدراسات التي كتبت في موسكو إضافات مهمة لنظرية علم اجتماع الأدب: «في معرض الهجاء»، «عظمة التعبيرية وانحطاطها»، «الحكاية أو الوصف»، «المظهر العقلي في التصوير الفني»، «كاتب وناقد». وقد طرحت كل قضية من هذه القضايا انطلاقاً من قاعدة اجتماعية تاريخية: تنتج الحالة الاجتماعية الهجاء، وهو بدوره يندد بها جوهراً، ولكن من وراء أقنعة. ويملك الكاتب «رؤية قويمية» للأشياء تبعاً «لوضعه الطبقي القويم» ولـ «إحكام المضمون الذي يمكنه، انطلاقاً من هنا، الوصول إليه». وتكون للشخصية صورة عقلية إذا كانت تشعر بأن «قضايا عصرها الأكثر تجرداً هي قضاياها الذاتية الشخصية»، وكذلك إذا ارتبطت الشخصية بما هو شامل: يمثل البطل الأكثر وعياً عند بالزك الصورة المركزية، فهو إما أن يكون فورتان أو غوبسيك. ويضطلع تمثيل الذكاء بدور حاسم بتحديد فئة عزيزة على لوكاتش، هي النمطي. وإنها لتمييز من الشكلائية بكونها تعكس وتعمم «العلاقات الصراعية بين البشر» بوصفها أثراً لنتساق أو للتباين. وأما ما يخص انتصار الوصف على التمثيل الملحمي للقوى الخفية، فهذه إنما تكون سمة

للمذهب الطبيعي لزولا، وبسمة للأدب السوفيتي بين الحربين. فالرواية تراقب بدلاً من أن تشارك، و«تسوِّي» بدلاً من أن تقيم بنية. ويدون لوكاتش قوله في عام 1936: «يتناقض المنهج الوصفي المهيمن مع الواقع التاريخي الأساسي لعصرنا العظيم»، ويعود الفصل، أخيراً، بين «كاتب وناقد» إلى تطور الرأسمالية. فهي التي «اختزلت الكاتب والناقد ووضعتهم في صف المختصين المحدودين». ولقد انتزعت منهم هذه الشمولية وذلك البعد المحسوس للمصالح الإنسانية الاجتماعية، والسياسية، والفنية التي تميز أدب عصر النهضة، وأدب عصر الأنوار، وأدب كل المراحل التي مهدت للثورات الديمقراطية.

وإنه لهم أن نرى، لقاء قفزة ثلاثين سنة، كيف أن زوال الستالينية قد غير فكر لوكاتش في كتابه «سوليمنتسين» (1). فالفيلسوف يرى أن القصة القصيرة قد ظهرت عندما بدأ الأدب يغزو الاجتماعي، أو بالعكس عندما انتهى هذا الغزو: إن بوكاس رائد من رواد الرواية الحديثة، وإن موباسان ليودع عالم بالزاك. فالقصة القصيرة لاتعالج العالم في كليته، ولكنها تعالج حالة خاصة. وإذا تأملنا قصة «أحد أيام إيفان دينيسوفيتش»، فسنجد أن الأمر لايتعلق بنهاية مرحلة بمقدار تعلقه ببداية أخرى. إنها نهاية حكم ستالين والستالينية، وليست بداية «نهضة الماركسية». وإذا تخلى الأدب عن الواقعية الاشتراكية، فقد غير الشكل أيضاً. وذلك لأن «أي أسلوب جديد فعلاً إنما يأخذ أصالته من كون الكتاب يسبرون حياة عصرهم بحثاً عنأشكال خاصة، فعالة ومبنية، تجعله مميزاً في الدرجات العلى، وتبدو قادرة على اكتشاف شكل يعكسه، فتجد فيه سماته الأكثر عمقاً والأكثر نمطية تعبيراً مناسباً. وإن القضية هي دائماً نفسها: كيف يمكن العثور، تحت

---

1- يعود تاريخ كتابة الدارستين اللتين يحتويهما هذا المجلد إلى 1964 و1969.



الأشكال الشعرية، على «القوى الاجتماعية الفاعلة واقعياً؟» ويبدو سوليبيستين في هذا مثل وريثاً لتولستوى ودوستوفيسكي. كما يبدو مؤلفاً «عامياً»، ولكن ليس شيوعياً. وهذا ما يأسف عليه لوكاتش، الذي سيبقى حتى نهاية حياته وفيماً، إن لم يكن لستالين، فعلى الأقل للينين. ويجب على المرء إذن أن يفرق عنده كما عند بالزاك بين الأفكار السطحية للوصف وبين البنى العميقة.

لقد صاغ غولدمان منذ عام 1947 مسلمة لن يتحول عنها، وهي التي تؤسس منهجه: «يكمن العنصر الأساسي بالنسبة إلى المادية

**2** **لوسيان غولدمان**  
**1913 - 1970**

التاريخية لدراسة إبداع الأدبي في كون الأدب والفلسفة يعدان، على مستويات مختلفة، تعبيرات لرؤية العالم، وفي أن رؤى العالم ليست وقائع فردية، ولكنها وقائع اجتماعية» («المادية الجدلية والتاريخية للأدب» جمعت في «بحوث دياكتيكية»، 1959)، ويقوم في مركز هذا التفكير مفهوم «رؤية العالم»، والذي هو «وجهة نظر منسجمة وواحدة تخص الواقع إجمالاً». وليست وجهة النظر هذه هي وجهة نظر الفرد المتغير دائماً، ولكنها وجهة نظر النسق الفكري لمجموعة من البشر يوجدون معاً ضمن الشروط الاقتصادية والاجتماعية نفسها. ويعبر الكاتب عن هذا النسق بصورة كبيرة دلالتها يجعل عدداً كبيراً من المؤلفين يعكس الجماعة، مثل: مواطنو الدرجة الثالثة، والأدب حتى القرن السابع عشر، وطبقة النبلاء الصغيرة، والرومانطيقية، وأوساط المحامين، والجانسينية.

وتستلزم المرحلة الأولى من البحث «فهم العمل نفسه من خلال دلالاته الخاصة»، وذلك قبل البحث عن العلاقات القائمة بين العمل والطبقات الاجتماعية في عصره.

ولقد كان غولدمان واحداً من الأوائل الذين أكدوا، منذ عام 1947، هذا الموضوعي الذي أخذه بارت والنقد المعاصر غالباً. فالكاتب، بحسب هذا الطرح، لا يعرف «دلالة كتاباته وقيمتها» معرفة أفضل من الآخرين. وكذلك فإن مساهمة شهاداته ورسائله لاتعد بالضرورة أفضل الطرق لفهمها؛ فبين مقاصد الفنان الواعية والأشكال التي يجسد فيها رؤيته للعالم، قد يوجد ثمة تفاوت، كان قد أشار إليه لوكاتش أيضاً. ولقد نرى أن «تحليلاً جمالياً محايثاً» سيسخرج «الدلالة الموضوعية للعمل»، وأن الناقد يقيم بعد ذلك «علاقة مع العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية للمرحلة الزمنية». ويبقى المعيار الأساسي هو «القيمة الجمالية». فبمقدار ما تكون القيمة عظمى، وبمقدار أداء المنهج لوظيفته، وبمقدار ما يتحقق فهم العمل بذاته، فإنه يجسد رؤية للكون «لاتزال تتكون، وبالكاد برزت في وعي الجماعة الاجتماعية». وبهذا تصوير الضرورة الداعية إلى دراسة سيرة الكاتب ومقاصده أقل: «إنه عندما لم يعد غوته في سموه الخاص، فإن الوزير فيمار عرّف بنفسه في عمله»، وإن العلاقة التي يقيّمها المبدع مع الجماعة التي ينتمي إليها أو التي يعبر عنها لقابلة أن يلم الاضطراب بها، أو من المحتمل أن تنقطع أيضاً. ذلك لأنها لاتتشكل بأي صورة من الصور علاقة علة بمعلول: «لقد أقام راسين وباسكال، في الوقت الذي كانا فيه يتحاوران مع بور-ريويال،<sup>1</sup> اسمى تعبير، فلسفة وأدباً، لهذه المجموعة والطبقة التي كان هو يعبر عنها».

إن متصور العمل، كما وضعه غولدمان في غضون مهنته، ليناضل ضد النزعة الترسيمية التي يمكن أن تكون في متصور استاذة لوكاتش فالفنان «لايستنسج الواقع»، ولكنه «يبدع كائنات حية»، وعالمها له بنية غناها ووحدها يصنعان القيمة فيها؛ وإنه لمن أجل يمكن أن توجد أعمال فنية أصيلة كقصائد ريلكية مثلاً. فهي تعبر عن رؤى للعالم صوفية ورجعية، ولهذا، فإن الأعمال الفنية العظيمة لتستطيع

أن تحتفظ دائماً بقيمتها». ومع ذلك، فإن الكاتب العبقري هو ذلك الكاتب «الذي لا يحتاج إلا للتعبير عن حدسه ومشاعره، وذلك لكي يقول في الوقت نفسه ما هو جوهري في عصره والتحويلات التي يكابدها هذا العصر». فالعبقري هو كائن «تقدمي» على الدوام. فإلى جنة غولدمان يدخل «الرجعيون»، بينما هم لا ينفذون إلى جنة لوكاتش، أو هم لا يأخذون فيها المكانة العالية. وإن الانطلاق لن يكون إذن لا من حياة الكاتب، ولا من أعماله فقط؛ فكل واحد من هذين المنهجين يظل غير كامل. والناقد على كل حال يبقى غير قادر أن يحب كما أحب غوتيه أو دانتي، أو أن يفكر كما فكرا. وإننا لنعود بهذا إلى الشرح السوسيولوجي الذي يعترف غولدمان بالتواضع نفسه الذي اعترف به مورون إزاء التحليل النفسي، بأنه «لايستوفي العمل الفني»، ولكنه «يشكل خطوة أولى ضرورية» على الطريق الموصل إليه.

لقد عمل غولدمان إلى تطبيق منهجه في أطروحته «الإله الخفي» (منشورات غاليمار 1956)، وفي المقالات التي تدور من حولها. وثمة بحوث بالغة الأهمية عن الجانسينية، وعن باسكال ورأسين نجدها في منهجه، وإنها لتستحق تقديراً أكبر مما شهد به بعض العجوليين من المجادلين. لقد ظل بالتأكيد على الدوام ماركسياً، ولكنه كان أيضاً متأثراً بكتاب بياجيه «الإبيستمولوجيا التكوينية» (1935). وهو صفة عالم اجتماعياً لم يعد يتجه نحو مضمون الفكر، ولكن نحو «البنية المرسومة للفكر الاجتماعي»، ونحو التأثير الذي يمكنها أن تمارسه. فلقد درس «بنى متناقضة» أي متضادة للفكر المأساوي مقارباً بين أعمال باسكال ورأسين ومحدداً، ضمن الجانسينيين، «مجموعة إجتماعية وتياراً إيديولوجياً» يمكنان من استشراف الشروط الاجتماعية والعقلية التي اشرفت على ولادة هذه الأعمال» ومعرفة أسباب الصراع بين الجانسينيين الذين يرفضون كل التزام سياسي، كما يرفضون السلطة. وإن المجموعة الاجتماعية التي يعبر عنها باسكال ورأسين وطوراً رؤيتها للعالم،

تتكون اساساً، وإن كانت مستترة، من البرجوازية، ومن طبقة القضاة النبيلة، ومن الأوساط البرلمانية. إننا سنقوم إذن بعملية تنضيد للبنى الأدبية كالتراجيديا مثلاً راسين، منشورات لارس)، ولبنى الفكر أو لرؤية العالم، ولبنى ليس عند طبقة بكاملها، ولكن مجموعة اجتماعية.

ولقد أكد غولدمان مجدداً بعد عشرة سنوات، في كتابه «من أجل علم اجتماع للرواية» أن «الموضوعات الحقيقية للإبداع الثقافي هي المجموعات الاجتماعية وليس الأفراد معزولين»، قال هذا معترفاً بطبيعة الحال بأن «الابداع الفردي يعد جزءاً من ابداع الجماعة». وقد ذكر أنه لا حاجة أن يكون المرء عالم اجتماع لكي يعلن بأن الرواية، بوصفها وقائع اجتماعية، تعكس المجتمع المعاصر لها، وهكذا نجد، بدلاً من طرح الهوية بين الواقع الاجتماعي ومضمون الأدب الروائي، أنه يراها بين بنية الوسط الاجتماعي والشكل الروائي. إذ ثمة تساوق بين الشكل الأدبي للرواية والعلاقة اليومية التي يقيمها الناس مع المنافع ومع الناس الآخرين. وهكذا في «مجتمع ينتج من أجل السوق»، فإن القيمة الاستعمالية تختفي أمام القيمة التبادلية، كما يختفي النوع أمام الكم. ذلك لأنه لم يعد لقيم الاستعمال سوى فعل ضمنى، كفعل القيم الأصلية في العالم الروائي. ويمثل تاريخ الشكل الروائي تاريخ بنى «التشبيح»، تماماً كما حلل ماركس ذلك. ولكي يحدد غولدمان الانتقال من البنى الاقتصادية إلى التجليات الأدبية، فإنه يقف على أربعة عوامل:

- ولادة «الفئة الوسطى» وهي شكل أساسي لتفكير المجتمع البرجوازي: فالمال، والمكانة الاجتماعية يصبحان قيماً مطلقة بدل أن يكونا وسيطين. - ثمة «أفراد إشكاليون» يبقون دائماً. وإذا تحددت القيم النوعية فكريهم وسلوكهم، مثل الكتاب، والفنانون. ولا يستطيع هؤلاء مع ذلك أن ينجو تماماً من «فعل السوق».

- لقد طور الجنس الروائي انطلاقاً من «سخط وجداني غير تصوري»، ومن «تطلع عاطفي إلى قيم نوعية»، ولدت في المجتمع.

- تستمر بقاء في المجتمع الليبرالي المتجه نحو السوق قيم ذات هدف شمولي. وهي ترتبط بوجود المنافسة نفسه (حرية، مساواة، أخوة). وتتطور الرواية انطلاقاً من هذه القيم وكأنها سيرة فردية، أي سيرة فرد «إشكالي»، شبيه بمؤلفه وإن الشكل الروائي ليتحول حتى يصل إلى «الذوبان التدريجي وإلى اختفاء الشخصية الفردية، أي اختفاء شخصية البطل».

ويحدد الفصل المكتوب عن مارلو المنهج. وتكون البداية بتحديد البنى الدالة المحيطة للعمل. ثم يكون البحث بعد ذلك عن التساوق وعن العلاقات الدالة مع البنى العقلية، والاجتماعية، والسياسية والاقتصادية لعصره. وإن الدراسة التي استشهد بها غالباً عن «الرواية الجديدة والواقع» لتظهر نظريات غولدمان عن السمة التشيئية للعالم، وذلك من خلال أعمال ألان روب غرييه. وهناك أخيراً فصل عن «المنهج البنوي التكويني في تاريخ الأدب». وهو فصل ينتهي الكتاب به. ولقد نرى أنه يؤكد تارة أخرى على المبادئ الكبرى ويدققها: «الكاتب العظيم تحديداً هو الفرد الاستثنائي الذي ينجح في ميدان ما، هو ميدان العمل الأدبي (أو ميدان الرسم، أو التصوير، أو الموسيقى) بإبداع عالم متخيل، ومتماusk أو متماسك تقريباً بشكل صارم، وتتطابق بنيته مع تلك البنية التي ترومها الجماعة كلها». وإن ليبداً أفضل كلما اقتربت بنيته من التماسك الصارم. ولقد يعني هذا أيضاً أن العمل ليس «انعكاساً» للوعي الجمعي، ولكنه تكوينه الذي يتيح للجماعة أن تعي ما تفكر به وتشعر، هذا إذا كانت الجماعة على الأقل تسعى نحو «رؤية إجمالية للإنسان». ولقد كان غولدمان يحتاج إلى الوقت لكي يطور استقصاءاته حول الأعمال، ولكي يدقق وصف العلاقات بين اللغة الأدبية والبنى الاجتماعية التي تصدر عنها أو التي تعبر عنها في تجاوزها لها.

سيكون من غير الصواب قصر عمل باختين  
الضخم على علم اجتماع الأدب فقط:  
فلقد يبدو لنا أن الجوهري في عمله ينتمي

إلى الشعرية (la poetique) بالأحرى. ومع ذلك، فقد ركزنا على وجهين من وجوه  
عمله (1) فهما يتممان عمل غولدمان، ويظهران في كتابه «أعمال فرانسوا رابليه  
والثقافة الشعبية في العصور الوسطى وفي عصر النهضة» (1965). الترجمة  
الفرنسية (1970)، كما يظهران في كتابه «شعرية دستوفسكي» (1963). الترجمة  
الفرنسية (1970). هذان الوجهان هما: اللجوء إلى الثقافة الشعبية أفقاً ومادة  
لبعض الأعمال العظيمة، وتجسيد رؤى العالم المختلفة في مختلف الخطابات التي  
تتقاسم الرواية.

ولقد نجد أن الثقافة الفولكلورية هي الأصل الذي تقوم عليه أعمال رابليه. وهي  
ثقافة كانت حاضرة في العصور القديمة عند بيترون أو عند أرسطوفان، ثم عادت  
إلى الظهور في عصر النهضة عند بوكاس؛ «لقد وجد رابليه في الثقافة الساخرة  
الشعبية للعصور الوسطى وعصر النهضة ينبوعاً فورياً ومباشراً» (2)، وهذا  
يعني أنه وجد رؤية خاصة للعالم مختلفة عن الرؤية الرسمية، وممهرة بأشكالها  
الخاصة. ومع هنا، فإن دراسة عمل غوغول لتعني العثور على «علاقته المباشرة مع  
أشكال المتعة الشعبية لمسقط رأسه» (3). فقصص الأعياد والاحتفالات الشعبية

1- انظر على وجه الخصوص كتاب ب. زيمبا «مصنف في اللغد السوسيولوجي».

2- «علم الجمال ونظرية التلقي». منشورات غاليمار 1978. ص 366. (موسكو 1975).

3- باختين المرجع المذكور سابقاً. ص 478: «رابليه وغوغول».

الأوكرانية. و «الواقعية البذئية» التي نشرها طلاب الدراسات العليا والكهنة الصغار، تقرب بين أعمال غوغول وأعمال رابليه. وبهذا يتصل الجحيم البهيج للارواح الميتة» مع جحيم «ربع كتاب»، وذلك لأن المبتغى إنما هو جولة في بلاد الموتى. وما كان ذلك كذلك إلا لأن لغة غوغول تنقلب إلى مصادر شعبية وقديمة ومنسية. وإذا كان الحال كذلك، فإن كارنامال الثقافة الشعبية لعبّر عن نفسه في هذا الضحك «المنتصر على كل شيء»، والذي هو «تطهر من الابتذال». وهكذا، فإن قضية الثقافة، كما يراها باختين، لاتطرح نفسها بوصفها تقدماً خطياً ومستمرًا، ولكن بوصفها انبعاثاً فظاً. وتعد هذه الثقافة ثقافة جماعية، وتشكل وسيطا إضافياً، يضاف إلى متصور رؤية العالم كما يراه كل من لوكاتش وغولدمان وأنه لوسيط رئيس، وذلك لأنه يعد ظاهرة من ظواهر اللسان، ويمكن أن يكون موضوع دراسة للسانيات وللقند الأدبي.

وأما السمة الجوهرية الأخرى في نقد باختين، والتي تنجم عن النقد الاجتماعي للأدب فهي ذات صلة ببنية تعددية الأصوات في الرواية. وفي الواقع، فإن هذا الجنس الأدبي يخلط أصواتاً متنوعة، فعندما حلل باختين أوجين أو نيفين<sup>(1)</sup>، فقد ميز فيها «أشكالاً لسانية وأسلوبية مختلفة» تنتمي إلى «أنساق مختلفة للغة الروائية»: فليس ثمة شيء يأتي مباشرة من باختين. وإذا كانت الرواية تعد «نسقاً من الحوارات، يتضمن تمثيلاً لأنواع كلامية»، وأسلوبية ومتصورات ملموسة، ولاتفترق عن اللسان»، وإذا كانت دائماً ذات نقد ذاتي للغة الأدب في عصرها، فإن أوجين أو نيفين تعد رواية حقيقية. وإن للرواية التي «نضجت في قلب الأجناس الشفوية المألوفة للغة المتكلمة الشعبية»، لتاريخاً طويلاً سابقاً، حيث يمكن للمرء أن يقف على «الصراع القديم للقبائل، والشعوب، والثقافات واللغات».

---

1- باختين : المصدر للذكر سابقاً، ص 401 - 410.

كما يستطيع أن يجد الضحك، وكذلك «تعددية اللغات». وهكذا نجد في لغة تاتيانا لبوشكين التدايعيات «على شكل حوار داخلي، وعلى شكل خطاب عاطفي تُمدّ من الحلم، كما نجدها «على ما جرى عليه ريشاروسون» و «أنسة الولاية» مع الكلام الشعبي لحكايات المرفهة، وللقصص التقليدية، والأغاني الفلاحية، والتنبؤات الساذجة، إلى آخره». وإننا لنرى كذلك أن الفقرات الغنائية للرواية تعد «تمثيلات روائية للشعر». «فالكاتب يساهم في روايته (إنه كلي الحضور)، ولكنه من غير لغة مباشرة وذاتية تقريباً. ذلك لأن لغة الرواية تمثل نسقاً عن اللغات التي يضيء بعضها بعضاً». وعندما يلاحظ باختين في العمل عمق السخرية للثقافة الشعبية الخالدة، ويلاحظ في الرواية الأصوات الأكثر تنوعاً، فذلك لأن هذين المنظورين يرتبطان ببعضهما، ولأن الرواية بالنسبة إلى باختين تُشتق من أجناس ساخرة مثل هجاء مينيبي. وهي خصبة أيضاً، وذلك لأن علم الاجتماع لا يدرس رواية من خارج اللغة وأخرى من جانبها الآخر، ولكنه يدرس البنى الاجتماعية بوصفها تتكلم، ولأن خطاباتها تُكتب.



مثال :

ميشيل  
كروزيه

4

إن أعمال ميشيل كروزيه الهامة هي «ستندال واللغة». منشورات غاليمار، 1981، وهي كتاب هام على وجه الخصوص. و«شعرية ستندال» دراسة عن التكوين الرومانطقي، منشورات فلمازيون، 1983. و«ستندال والنزعة الإيطالية» دراسة عن الأسطورة الرومانطيقية، منشورات كورتني، 1982. و«حياة هنري برولار أو طفولة التمرد»، منشورات كورتني، (1982). وإن هذه الأعمال الهامة لتبدو كلها منصبة على كاتب واحد، واسع فعلاً، إنه ستاندال. ولكن ما يكشف عنه جيداً كتاب «طبيعة ثم كيف نعبر منهما إلى المجتمع». فستاندال إنسان رومانطيقي وحديث، وما كان هو كذلك إلا لأنه متمرد. فهو يعيد عشق الحرية، ويجدد الحرب ضد المجتمع بكل ما فيهما من عنف، ولكنه إذ يفعل ذلك يبين أن الإنسان موجود خارج الحيز الاجتماعي. إن ستاندال النرجسي، وستاندال تلميذ رسولشغول بهذين النقيضين، وإنه ليعيش صراعات: «فالتقدم له وجهاً ما»، والتطور لا يقل عنه انحلالاً، والتمرد هو «بداية وسقوط». وإذا كان «صنع المجتمع» هو «الفرار من النظام الطبيعي»، فإن الناقد يطرح «قضية الحضارة» كلها. فضمن أي معيار يستطيع كاتب واحد أن يقف على الصراع الأساسي للوضع الإنساني، وأن يرى الصراع بين الأنا والمجتمع؟ لقد كان ذلك كذلك، لأن نقد ميشيل كروزيه يطرح هذه المسألة باستمرار بوصفها مسألة ذات طابع اجتماعي. وإنه ليطرحها بقوة الفكر وليس بقوة الحسم، ولابقوة فلسفة متجدة.

## II - النقد الاجتماعي

كتب كلود دوشيه قائلاً إن النقد الاجتماعي «يستهدف النص أولاً. وإنه ليكون بهذا قراءة محايدة، بمعنى أنه يأخذ على عاتقه مفهوم النص الذي أنشأه النقد الشكلي، وأظهره بوصفه موضوعاً له الأولوية في الدرس. بيد أن الغاية تختلف، لأن مقصد النقد الاجتماعي واستراتيجيته يكمنان في إعادة المضمون الاجتماعي إلى نص الشكليين» (النقد الاجتماعي، منشورات ناثن، 1979، ص3). وإن الحيز الذي يشغله النقد النفسي في التحليل النفسي، يشغله أيضاً النقد الاجتماعي في داخل علم اجتماع الأدب. فالنص لم يعد يُنظر إليه بوصفه انعكاساً، ولا بوصفه انجازاً لمضامين سابقة عليه، ولكن بوصفه قيمة جمالية. ومع ذلك، فإن المرء يجد فيه قيوداً مسبقة، و«نماذج اجتماعية ثقافية»، ومتطلبات اجتماعية ومؤسسية. ويذهب دوشيه مذهباً يتكلم فيه عن «الوعي الاجتماعي الباطن» بوصفه شكلاً خيالياً. وإنه ليعترف بأن كل ما في النص إنما يصدر «عن فعل ما من أفعال المجتمع»، أو إنه يصدر، كما ترى الماركسية، عن «علاقات اجتماعية للانتاج». وإنه ليؤكد أنه ليس ثمة شيء يمكن أن يُستنتج من هذا الفعل مباشرة. وإننا لنجد هنا قضية الوسطاء الذين اصطدم بهم لوكاتش وغولدمان. ولقد تبنى النقد الاجتماعي طموحات هذا الأخيرة فاستند في أن واحد إلى المادية، وإلى

«البحث الماركسي». ولذا، فقد قدم برنامجاً حول موضوعات ثلاثة بدلاً من تقديم إنجازات: «تفاعل (ليس هو المؤلف)، والإيديولوجيا، والمؤسسات». وتوجهت العناية في النص إلى المؤسسات، وإلى النماذج الثقافية، وأحتى المدرسية، وإلى مكان العمل الفني في إطار المؤسسات. «فالإيديولوجيا» التي لا يستطيع النقد الاجتماعي أن يتحاشاها، «هي بعد من أبعاد العيش في مجتمع. ولقد ولدت من تقسيم العمل، وارتبطت ببني السلطة. إنها شرط، ولكنها أيضاً انتاج لكل خطاب».

يعطي بيير زيمبا في كتابه «مصنف في النقد الاجتماعي» (منشورات بيكار 1985) تعريفاً دقيقاً لهذا المذهب. فهو يتطابق مع «علم اجتماع النص»، أي بدلاً من أن ينشغل بموضوعات العمل وأفكاره، كما هي الحال في فروع أخرى من فروع علم اجتماع الأدب، فقد انشغل في معرفة كيف أن القضايا الاجتماعية ومصالح المجموعة ترتبط على السطح الدلالي، والنحوي، والسردى. غير أنه لم يتخلل عن التعليق النقدي ولا عن حكم القيمة. وعلى الرغم من أن زيمبا كان قريباً من مدرسة فرانكفورت (أدورنو، هوركايمر، ماركوز) إلا أنه لم يتبى لا المتصورات في شموليتها، ولا الحدود التي تتعلق، كما يرى، بمفردات تدين بكل ما فيها إلى كانت، وهيجل، وماركس؛ إن مدرسة فرانكفورت مدرسة فلسفية. وإن أدورنو نفسه ليس ناقد أديباً، ولكنه فيلسوف يتكلم عن الأدب أثناء أوقات راحته. وإن هذا «المصنف» ليعد، من غير ريب، الكتاب النسقي الأول الذي يحاول أن تقدم تاريخ منهج وإعطاء ثقافته التحليلية الخاصة في الوقت نفسه. ولقد خصص القسم الأول في الواقع «للمناهج والنماذج»، أي للمفاهيم الأساسية في علم الاجتماع: النسق الاجتماعي، المؤسسة، الوعي الجمعي، تقسيم العمل، الطبقات، الإيديولوجيا، قيمة التبادل، التشيؤ والاستلاب. وإن ماركس ليهيمن على علم اجتماع الأدب. ويكون ذلك خاصة حين يمارس هذا العلم منظرون، الأعمال الأدبية بالنسبة إليهم ليست سوى أمثلة يستخدمونها. وإنهم ليخاطبون في بعض المرات بين البرنامج وبين العمل

الاستقصائي الدؤوب. وإنه بكل تأكيد أكثر كنوداً، ولكنه ربما يكون أكثر فائدة. ولقد تم البدء بهذا العمل في بورديو خاصة، وحول روبرت اسكاربيت في كتابه الأدبي والاجتماعي (1970). ونلاحظ أن هذه الأخيرة تنتصر عند لوكاتش، وغولدمان، وأدورنو، وماشري، وبينما يذكر زيم أن ثمة علماء اجتماعياً للأجناس الأدبية: فهناك إريك كوهلير الذي يربط ملحمة العصور الوسطى بالمصالح الجماعية لطبقة النبلاء (1)، ويربط التراجيديا الكلاسيكية ببلاط لويس الرابع عشر، كما يربط الملهاة والرواية بصعود البرجوازية (ص 48). وهناك جان دوفينيو. وهو مختص بعلم اجتماع المسرح. وإنه ليرى أن الدراما تعد شاهداً على أهمية القيم في عصر من العصور: يمثل الأبطال المجرمون في عصر النهضة رمز «الوعي الجماعي المريض» لتلك الفترة. وثمة كتاب لجوليا كريستيفا «ثورة اللغة الشعرية» (1974). وإنه لينقي جزئياً إلى النقد الاجتماعي للشعر، غير أنه لم يُعرض كثيراً. ولكن والتر بينجامان ضرب مثلاً مدهشاً «حول بعض الموضوعات عند بودلير» (1939).

يقدم زيم في القسم الثاني من «مصنفة» مفهومه الخاص عن «علم اجتماع النص»، وذلك انطلاقاً من أمثلة مستعارة من رواية «الغريب» لألبير كامو، ورواية «البصيص» *Voyeur* لأن روب غرييه، كما يستعير أمثلة من مارسيل بروست. والمقصود بعمله هذا، هو تمثيل «مختلف مستويات» النص «بوصفها بنى لسانية واجتماعية». وكذلك استعارة «بعض المفاهيم الإشارية الموجودة» باستخدام «إبعادها الاجتماعية». فالعالم الاجتماعي هو «مجموعة من اللغات الجماعية». وكذلك استعارة «بعض المفاهيم الإشارية الموجودة». باستخدام «إبعادها الاجتماعية». فالعالم الاجتماعي هو «مجموعة من اللغات الجماعية» تمتصها

---

١- كوهلير: المغامرة الفروسية. المثال والواقع في الرواية الغزلية (1965 الترجمة الفرنسية، غاليمار، 1974).

النصوص وتحولها. وهكذا، فإن زيمبا يطرح في الواقع نظريتين تمثلان بالأحرى بدهيتين: «إن القيم الاجتماعية لا توجد أبداً مستقلة عن اللغة»، و«الوحدات المعجمية، الدلالية والنحوية تفصل المصالح الجماعية. وإنها لتستطيع أن تصبح رهانا لصراعات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية» (ص 140). وسنصل إذن إلى تمثيل الصراعات الاجتماعية، على المستوى اللساني، من خلال المفردات (مسيحي، ماركس، فاشي، إلى آخره)، ومن خلال التعارضات الدلالية، والخطاب، حيث تظهر الإيديولوجيا بمعنى «المنافع الاجتماعية الخاصة» التي تعبر عن نفسها طبعياً وكأمر بدهي بالنسبة إلى المتكلم. هذا، وإن الخطاب الإيديولوجي لا ينقد ذاته بذاته، وإنه ليجعل «الحوار النظري» مستحيلاً، كما يجعل «الفحص التجريبي» غير ممكن. وهو يرتبط بالسلطة السياسية، ويميز «كل اللغات المستبدة والشمولية». ويمكن أن يصف الإيديولوجيات في النص من خلال عملها. وهذا يقتضي بادعاء ذي بدء تحديد «الحالة الاجتماعية اللسانية» للنص. تلك الحالة التي عاشها المؤلف ومجموعته الاجتماعية. وإننا لنجد بعد ذلك مختلف الخطابات التي «يمتصها» الكتاب: يحتوي كتاب «الإنسان من غير صفات» لموزيل على عدد من الخطابات الإيديولوجية المتنافسة والمحاكاة محاكاة ساخرة. فخطاب الراوي يكون موسوماً «بالتناقض الوجداني لكل القيم الثقافية» الناتجة عن أزمة الليبرالية. ومن هنا، ينشأ نقد غير تقليدي، قريب من الدراسة، ويكون غير مكتمل. وإذا تأملنا في رواية «الغريب»، فسنجد أن اللامبالاة تكشف عن «خور الخطابات الإيديولوجية» التي يشهد عليها خطاب النائب العام، وإن المواقف نفسها، عندما يتعلق الأمر برواية «البحث عن الزمن الضائع»، لتقود إلى النظر إلى اللغات التي تنتقد الرواية بوصفها وسيلة لبيان «بنية النص كلها». وإن المحادثة التي تعبر بها عن نفسها «الطبقة الخالية» لتلتحق بنرجسية الراوي، وإن القضية التي أفلتت من زيمبا هنا، هي تلك القضية التي تصادف كل علم من علوم اجتماع الأدب: ما هو الفرق بين المحادثة «المكتوبة» والمحادثة الشفوية؟ وإذا كان بروست قد انتقد «الكلام المستخدم

اجتماعياً»، وإذا كان قد أحدث قطيعة معه، فماذا بقي للنقد الاجتماعي؟ ومن جهة أخرى، إنه لتعسف أن يختزل المرء رواية «البحث» إلى نقد يمارسه المكتوب على الكلام المستخدم في الحياة الاجتماعية. وهكذا يبدو أن البرنامج الذي أعلن عنه الباحث الاجتماعي لم يجد إلى التنفيذ سبيلاً. وأنه لأمر ينطبق أيضاً على المنظرين كما ينطبق على الأحزاب، فهؤلاء إن أعطيت لهم السلطة لن يطبقوا برامجهم: إن التعارض بين المحادثة والكتابة لا يكشف عن بنية رواية «البحث». ولو أن المرء اتبع ما يراه زيمّا لظن أنه كان يمكن لهذه الرواية أن تكون في مثني صفحة. ألا وإنه لاستنتاج ضحل أن يجد المرء «المجتمع العلماني للبرجوازية» في أنصار الفن، وأن يخرج من النص أقل غنى من وقت دخوله فيه.

إنه ستفضل إذن، في مادة النقد الاجتماعي، الدراسات الأحادية ودراسات التفاصيل التي تصب في النص مباشرة، على النظريات المججلة والمتبوعة بأمثلة مخبرية. وكتاب هنري ميتران «خطاب الرواية» (منشورات بوف، 1980) يعد مثلاً على هذه الدراسات، فالجرد المنهجي للشروط التاريخية وللانتاج الأدبي يسمح له بتحديد «شروط هذا الانتاج ورمائياته، وقواعده»: «إننا نستطيع في كل سنة أن نقرأ تقاطع الخطابات وتصادماتها، حيث يفهم كل واحد منها بوساطة الخطابات الأخرى: تحليل كل ما يقال وما يكتب «خلف نص من النصوص العظيمة» (من أجل نقد اجتماعي أو الخمارة المريبة - L'Assommoir) «وإن كانت محددة «بالجوهر الاجتماعي» الذي تقوم فيه، إلا أنها تشوش الخطاب المقرر وتحرفه عن مساره: لقد كان الشعب في الأدب، إلى أن جاء زولا، يعد جزءاً من درجة هزلية. وكانت الشخصيات الشعبية، إذا لم تكن هزلية، تأخذ بسرعة صورة تستوجب الاعتبار. فالشعب في رواية «الخمارة المريبة» لم يكن مذنباً، ولم يفز بالخلاص. ولذا فإن دراسة الشكل لتتموضع إذن بين دراسة الخطاب الاجتماعي المقرر ودراسة «العبرة الروائية»، أي دراسة المضمون الظاهر للكتاب، وإن عنواناً مثل «قصر اليهودية» لجي دي كار، ليحيل إلى «اغتناب المحرم»: «إننا نسمع الأمر الداعي

إلى الخضوع مثل شخصية «الأشترافي» عند فلووير لتعد حمقاء (سينكال، في التربية العاطفية)، وإنها لتمثل شخصية بطل حقيقي عند زولا (لانتبيه في الخمارية). وإذا كان هذا هكذا، أفلا يكون محظوراً على المرء أن يقف في البنى الأدبية على «البنية الاجتماعية التي تشكل الشخصية» شريطة دراسة البنى دراسة فعلية؟ هذا العمل هو الذي يتابعه بيير مارييري في كتبه عن «بالزك ومرض العصر» منشورات غاليمار. (1970)، وعن «رونيه شاتوبريان» (منشورات لاروس 1973)، و «إلى مصادر الواقعية: أرسنقراطيون وبرجوازيون» (الاتحاد العام للكتاب، 1987)، وفي كتب أخرى: «ثمة شبكة عن المصالح، والتقاليد، ونتائج للعلاقات الطبقيّة تضم أطراف الرواية الواقعية من غير أن تبدها الرواية. وإن الأدب الذي هو تدوين وتحليل، بوساطة أدواته الخاصة، للصراعات الناتجة عن الطبيعة وعن حركة الأشياء، لا يعرف كيف يكون ممكناً [...] من غير مرجع يحيل إلى الإطار الاجتماعي التاريخي الذي تطور فيه وتطور ضده» (1) ويريد هذا النقد أن يكون «انفعالياً» و«سياسياً»، بلا شفقة، وفي بعض المرات من غير تقدير للمناهج التي لا يقرها: إن القارئ ليعرف، كما هي الحال عند لوكاتش وعند ماركسين آخرين، تفضيل التحليل على المقالة الهجائية. ولقد يمكن للمرء أن يقول الشيء نفسه عن كتب أستاذ انكليزي مثل تيري إيفليتوف الذي ينهي «نظرية الأدبية» (نظرية الأدب، منشورات إكسفورد، بلاكويل، 1983) بعريضة لصالح «النقد السياسي». وسنتمم إذن هذه الأعمال بفكرة عن «الحقل الأدبي»، وذلك على طريقة بورديو: إن المؤسسات الأدبية، والوضع الاجتماعي للكاتب، و«حقوله الثقافية الأساسية»، وسلسلة التأمّلات العاملة في الانتاج الأدبي، قد قام بتحليلها علم اجتماع الحقل الأدبي (2).

---

1- «مصادر الواقعية» ص 18.

2- أ. فيالا: ولادة الكاتب (1985)

### III - جماليات التلقي

لا يشغل علم اجتماع الأدب نفسه بالكاتب والكتاب فقط، ولكن يشغل نفسه بالجمهور أيضاً. وإن الذي يعالج الاستقبال الجماعي للعمل هو علم اجتماع القراءة، وجماليات التلقي، أو هو على الأقل هذا الجزء من جماليات التلقي؛ فعلاقات العمل مع القارئ ستدرس بوصفها موضوعاً مستقلاً في وقت واحد مع الشعرية التي تصدر عنها .

#### 1- علم اجتماع القراءة:

إن انشغالنا بتقديم كتب شهود تسجل معلماً زمنياً في تاريخ منهج ما، وليس تقديم كل الكتب، ليجعلنا ننطلق من كتاب ك. د. لايفس «القصة وقراءة الجمهور» 1932، أعيد نشره لدى بانغوان بوك، (1979). فالكتابة نفسها تصف إجراءاتها بوصفه جزءاً ليس من النقد الأدبي المعتاد، ولكن بوصفه جزءاً من الأنثروبولوجيا ومن تاريخ الذوق، والمقصود بالدراسة هو معرفة على أي شيء يركز موقف الجمهور إزاء القراءة، وليس بالأحرى هو دراسة الروائع، وهو الأمر الذي، منذ القرن الثامن عشر، يصنع نجاح الرواية. ولماذا الرواية؟ لأن «الكتاب» يعني بالنسبة إلى معظم الناس إنه «الرواية». وثمة استقصاء حول سوق الكتاب قامت به الصحافة، والمكتبات العامة، ومكتبات بيع الكتب، وعند باعة الصحف، وإن هذا الاستقصاء ليسمح بتحديد الكتب التي تطلبها الغالبية العظمى من الجمهور الإنكليزي في عام 1930). وهي كتب تشكل الأدب الشعبي ولقد كان الجمهور، في تلك الفترة، يتعرف على وجود الكتب من الصحافة. كما أن ك. د. لايفس قد أعدت قائمة بالنقد الأدبي في الجرائد البريطانية، وبالمعايير التي تقف عليها كل جريدة:



وبهذا يكون الجمهور قد قرر بنفسه قبل أن يشتري أو يستعير. وتعرّز النوادي الأدبية هذا القرار. كما ظهرت كتب تعلم المرء كيف يكتب القصص الناجحة. وأما رأي الروائيين، الذي تلمسه الاستفتاءات المرسلة إلى ستين منهم، فيشير إلى نموذج العلاقات التي يقيمونها مع الجمهور. وإن هذا الاستقصاء ليظهر التمايز، الذي يعود تاريخه إلى نهاية القرن التاسع عشر (بالنسبة إلى انكلترا) بين الروايات النوعية وبين الروايات الشعبية (أي تلك التي تحقق مبيعات كبرى). وكان الروائي مثل ديكينز، حتى ذلك الزمن، يتجه بخطابه إلى كل الناس. وإن هذه القطيعة التي حدثت بعد ذلك، إنما هي ظامرة حديثة. فالجمهور يتكون من فئات، والأدب الحديث ارتكن إلى الفئة الأقل عدداً. هذا مع العلم أن الكثرة الغالبة من القراء لاتهم لا بالشعر، ولا بالنقد. ونجد ومن جهة أخرى أن الروائي الشعبي، على عكس هنري جيمس مثلاً، لا يستطيع أن يعيش من غير علاقة حميمة مع الجمهور. فهو يسليه، ويمنحه الهروب، والتطابق. ولقد قادت نتائج الاستقصاء ك.د. لافيس إلى مساءلة الماضي بشكل تظهر فيه الكيفية التي تشكل الجمهور من خلالها، ثم كيف عاد متفككاً بتأثير التطور الإقتصادي.

في الواقع، كانت الجماهير الشعبية في بداية القرن السابع عشر تصغي إلى شكسبير من غير أن يكون لها خيار آخر. ثم وإن روايات (ناش) كانت صعبة. ثم جاء بعد ذلك جيل الطهارة بكتبه الثلاثة: التوراة، وبينيان، وميلتون. لقد تطابق دوفو مع جمهوره البرجوازي، بوصفه يوطد العزم ضد العاطفة ومضاداً للرومانسية؛ لقد قتل فندردي بنصف جملة، ولكن قيم الملكية والأخلاق ظلت موقرة على الدوام. وتتضمن مذكرات القرن الثامن عشر شهادة قراء ذلك الزمن، وخاصة مذكرات مكتبة لاكينغيتون (المكتوبة في 1791)، ومذكرات أعضاء آخرين من الطبقات الشعبية. ولم يكن الروائيون في القرن الثامن عشر ليبتركوا للقراء أي إمكانية

للاطلاق لأنهم كانوا بالعقلانية لا بالعاطفة ينشطون. وكانت لديهم مفردات مجردة تصف العواطف، يساندها «الذوق الرفيع»، و«الفكر السليم»، والبعد النقدي، ولقد اختفى هذا النمط في القرن التاسع عشر: فتاريخ الجمهور الأدبي، هو تاريخ أنماطه المتعاقبة. ولقد أدى اتساع القراءة الهائل في نهاية القرن الثامن عشر إلى متغيرات عديدة، تخص الكتاب، والناشرين، والدوريات، كما أدى إلى انتظار قراء، وانتظار روائي يعد مثلاً. غير أن انتشار مكتبات الاعارة قد أدى إلى انخفاض في مستوى القراء. ذلك لأن الجمهور قد صار يطالب بالإثارات العنيفة، وهو الذي استطاع أن يثمن رواية تريسترام شاندلي، وأن يطالب بأجزاء جديدة كانت قد فقدت. ولقد ظهرت موضوعات الرواية الشعبية في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك في الوقت الذي توقف فيه النقد عن إعطاء بيان عن معظم الروايات. ولكن الثورة الصناعية هي التي أدت إلى تفكك عرى الجمهور فأوقات الراحة المقهورة في الريف لم يعد لها وجود في المدن. ولقد غيرت ظهور المسلسلات في بناء الرواية وأسلوبها. فتركز الإلحاح على الإثارة، وأدى إلى اختفاء الحدود بين الأدب والحياة في الفكر النقدي، وقد بدأ مستويات من مستويات الجمهور بالافتراق عن بعضهما. ولقد نلاحظ أنهما أقل بروزاً مما هي عليه الحال في القرن العشرين؛ غير أن ديكنز كان يتجه بخطابه إلى الاثنين. وزاد في القطيعة بينهما ظهور طبعات رخيصة الثمن (سميث 1848). وكان الروائي، مثل كونراد، أو مثل جيمس، يجد مشقة لكي يعيش من قلمه، بينما كان جورج إليوت يستطيع ذلك. ولذا، فقد رأت ك.د. لايفس أن انفتاح السوق على السواد الأعظم من الناس يضر بالقراءة النوعية. فهذا الجمهور الجديد يبحث عن كتب سهلة المتناول، إنه يبحث إذن عن روايات. وكان ثمة كتاب آخرون، تبعاً لحكمة فلوبير، وزولا، وتورغينيف، يريدون أن ينشروا أعمالاً فنية موزون، كونراد، جيمس)، ولكنهم كانوا بحاجة إلى جمهور من المتعلمين. وشيئاً فشيئاً، لم يعد السواد الأعظم من الناس يفهمهم. وهناك دراسة هامة عن الصحافة

الأدبية في القرن التاسع عشر تكمل المشهد، وتذكر انخفاض المستوى نفسه. وإنه لانخفاض تعززه المصالح المالية، وتعاضده الدعاية. كما اختفى أيضاً النقد الشديد للكتب، لأنه بدا غير وفي لسواد الناس. فالجهد الذي يطالب به، كان يبدو مسبة للقارئ العادي (ص 158). ولقد اختلط نظام قيم النقد مع نظام قيم جمهوره. ونبهت ك. د. لايفس إلى بعض ممارسات الصحافة، التي لا تتكلم عن كتاب إلا إذا طلب الناشر منها أن تنشر عنه إعلاناً، ولذا، فهي لا تهتم أبداً بالكتب الصعبة.

لقد قادت مواجهة الحاضر بالماضي لايفس إلى دراسة المعنى القائم خلف رواج كتاب من منظور الجمهور. ورأت أن تطور الرواية مرتبط بتطور أوقات الفراغ؛ فهناك جمهور يتنامى، وهناك ناشرون صناعيون، وهناك كذلك كتاب مستعدون لدراسة السوق وتمويله. وهذه كلها شروط جوهرية، ولكن السبب الرئيس للتغيير يكمن في تغير المحيط الاقتصادي والاجتماعي. وإن هذا التحليل ليقود إلى طرح القضية بمصطلحات الانحطاط أو التقدم. وإن موقف الناقد من هذه القضية لواضح؛ ف شراء كتاب سوقه رائجة أمر يضر بالأدب الذي انقطع عنه رجل الشارع. فلقد أضاع هذا الثقافة الشعبية القديمة. وإنه ليجد نفسه مستسلماً لتزجية الوقت. كما يجد أن لغته نفسها قد انحطت (وقد بين بروس ذلك بمقارنة لغة فرانسواز مع لغة ابنتها). وإذا كان ذلك كذلك، فإن القراءة وحدها هي القادرة على تغيير تأثير المحيط وتصحيحه؛ ويكون هذا بالشعر، والمسرح، وبأفضل الروايات، ولكن لكي نعود إلى الكتاب الرائج، فسنجد أنه يفترق عن الرواية العظيمة كما يفترق عن لشعر من جيله، فإذا كانت رواية كروايات جيمس أو كروايات فيرجينيا وولف تشغف الجمهور الكبير، فمرد ذلك لأن هذا الجمهور لم يعد مدرباً على قراءتها إما يُقرأ عمل شعري، وأن السلبية التي لاتزعج الأدب الغث قد أفسدته. ونجد، نلاحظاً لهذا، أن لجمهور ستين، وميلتون، وبوب جلدأ على التركيز وانعدام القدرة

على الملل. وهاتان صفتان ضاعتا جزئياً لأن مسليات المجتمع المدني لاتشده إليها. والقراءة بصوت مرتفع ضمن العائلة كانت إشارة إلى ذلك؛ غير أنها اختفت. وقد نشأ عن هذا الوضع أدب بديل، استهدف مستوى وأسلوباً وسطين. وبهذا صار الشعر إلى نهايته، إذ لم يعد مقروءاً بينما كان لايزال منتشرأ وانتشارأ واسعأ في القرن السابع والثامن والتاسع عشر. وصار الحال إلى أن المرء يطلب قليلاً ويعطي قليلاً؛ فثمة مسكوكات عل غرارها تصاغ حياة القراء. تلك الحياة غدت فارغة، ومحدودة، وخطيرة. وهذا ما تظهره ك. د. لايفس، إذ تحلل مقاطع لعدد من الكتب السائدة سوقاً، وذلك بحسب الأثر الذي تتركه على الجمهور، وتبعأ للمستوى «المرتفع»، أو «الوسط»، أو «المتدني». وإن القضية الأساسية في كل هذا هي قضية اللغة؛ إن لغة السواد الأعظم من الجمهور لغة خيالية من العلاجات الغنية. وإنها لتتكون من أفكار ومشاعر نمطية بينما تصدم رواية جيدة أحكام القراء المسبقة، وتشكك بالعادات الذهنية. ولكي تقف ك. د. لايفس في تحذير الجمهور للصناعة الثقافية، فإنها تطالب، في الموجز، بمضاعفة دراسات (كما هي الحال بالنسبة إلى دراسات) الأنثروبولوجيا الثقافية. وإنها لتوجه نداء إلى الشباب، وإلى المدرسين، كما تدعو إلى نقد حقيقي وتام، وتدعو إلى نشر نزيه، وناشريين مترفعين. ويقود الاستقصاء الأنثروبولوجي إذن إلى الدفاع عن نسق من القيم الأدبية.

إن هم دراسة الجمهور الأدبي هو الذي أدى، بعد خمسين عاماً، إلى تحرير كتاب «قراءة القراءة» لجاك لينهارت وبيير جوزا (السيكومور، 1982). وإنه كتاب يحلل قراءات متقاطعة للروايات نفسها في فرنسا وفي هنغاريا (الأشياء) «لبيريك، مقبرة الصدا» (لأندر فيجيس). فلم اجتماع القراءة يفترض النظر إلى القراءة بوصفها ظاهرة مستقلة، وصادرة عن دراسة علمية، ووصف «يضع الوجه الاجتماعي لسلوك القراءات موضع البداهة». وسنذكر من بين هؤلاء الرواد دوغلاس وايلز في كتابه :

(Research Memerandum on Social Aspects of Reading in the Depression, 1937).

وكتاب وابلز وبيرلسون: ( What Reading Doe to People,1940 ) . وكتاب روبير اسكاربيت (علم اجتماع الأدب، 1985).

إن هدف الاستقصاء الذي قام به لينهارت وجوزا يقوم على إظهار تعددية التأويلات المعطاة لنص روائي وينيتها»، وذلك في الميدان الاجتماعي، والسياسي، والأخلاقي، والفلسفي. وتحيل هذه التأويلات نفسها إلى بنى اجتماعية و«انسجامات إيديولوجية» تضمنها وسنجهتد، من جهة أخرى، لكي لانفصل «أثر المضمون» عن «أثر الشكل». وسيبرر نموذجان من نماذج القراءة : يهتم النموذج الأول «بالأبطال»، ويهتم النموذج الثاني بالظواهر الاجتماعية في الكتاب المقروء. ويتقدم المؤلفان إضافة إلى هذا، بمتصور عن «طريقة القراءة»: القراءة تحقق وقائع، وظواهرية. وإنها لتبقى على سطح الحوادث المروية. أو هي «انطباق انفعالي»، وترتبط بسيرورة للتطابق، فلايستطيع أن يلغيها شيء وإن كان نصاً حديثاً (1965) من نصوص بيريك. والطريقة الثالثة للقراءة هي طريقة «تحليلية تركيبية»، وهذا يعني أنها تبحث عن أسباب وضع من الأوضاع ونتائجه. ويمكن لهذه الطرق الثلاثة أن تطبق إما على الشخصيات ، وإما على المجتمع، فكل رواية تقترح، من جهة أخرى، نسقاً من القيم: فهل يعكسه تأويل القراء، أم أن القراء سيفرضون نسقهم الخاص؟ «فما يتم تبليغه يغير المعنى خلال عملية الاتصال، وذلك تبعاً لثوابت تحدد المرسل، والمستقبل، وقناة الاتصال». وتتعلق «قيم الفرد»، بالنسبة إلى لينهارت وجوزا «بانتمائه أولاً إلى المجموعة الاجتماعية». وثمة، أخيراً، ثلاثة عوامل اجتماعية تؤثر على الأفراد: «الثقافة الكلية لحضارة من الحضارات، و«الثقافة الوطنية، الماضي الوطني،التقاليد»، و«وعي المجموعة أو الطبقة الاجتماعية». وإالتقابل بين الجمهور الهنغاري والجمهور الفرنسي هو الذي سمح بتبرير هالتأكيدات».

إن الجودة الأساسية في كتاب «قراءة القراءة» ليست في هذه المبادئ بقدر ما هي في الاستقصاء الذي قام به مؤلفاه. وكان يجب إذن إعداد عينة من الناس تحتوي على مجموعات اجتماعية مهنية مختلفة (تتألف من مهندسين، وأنصاف مثقفين، ومستخدمين، وتقنيين، وعمال، وصغار التجار). وثمة استمارتان: تتعلق الأولى بعادات القراءة، وتتعلق الثانية يكتب محددة، وهناك أمور تتعلق بتنميط العبارات وهناك أخرى تتعلق بعملية إنشاء إحصائي للمعطيات، وكذلك للعلاقات المتبادلة بين الأجوبة. ولقد وصف المؤلفان بعد ذلك وأقاما أربعة «أنساق للقراءة» لاتقف عند حدود الوجوه الثقافية، ولكنها تتضمن القيم مثل: «القراءة الظواهرية»، و«القراءات القتمينية» للنموذجين، و«القراءة التركيبية». ومن غير أن ندخل في تفاصيل الفرز، سنذكر بأن النتيجة تشير إلى انعدام التشابه بين القراء وبين بنى النصوص، موضوع الاستقصاء؛ وإنه لمن الواجب على المرء أن يرجو زيادة مثل هذه الاستقصاءات. فهي تظهر كيف أن الانتماء إلى بلد وإلى مجموعة اجتماعية يؤثر على القراءة.

ولنسجل مع ذلك أن رجلاً مفتوناً بالماركسية مثل والتر بنجامان كتب قائلاً: «إذا أردنا أن نعرف كتاباً أو شكلاً فنياً، فإننا لن نستفيد شيئاً إذا عدنا إلى من يخاطبه». إذ ليس فقط كل عودة إلى جمهور محدد، أو إلى ممثليه تعد وسيلة أكيدة من وسائل الضلال، ولكن أيضاً مفهوم الجمهور «المثالي» لا يستطيع إلا أن يضر بأي دراسة نظرية عن الفن، فافتراضات الفن المسبقة وحدها يجب أن تكون هي وجود الإنسان عموماً وجوهره» (الأعمال المختارة، منشورات جيليار، 1959، ص 57).

## 2- جماليات التلقي

لقد جذبت أعمال مدرسة كونستانس الانتباه إلى جماليات التلقي، فجمعت الدراسات لواحد من أنبغ ممثليها، هو هانز روبرج جوس، وذلك في كتاب بعنوان «من أجل جماليات التلقي» (1972 - 1975). الترجمة الفرنسية منشورات غاليمار (1978). يضع جوس مسألة مفادها أن العمل «يشتمل في وقت واحد، على النص بوصفه بنية معطاة، وعلى تلقيه أو على إدراكه إدراكاً حسيّاً يقوم به القارئ أو المشاهد»، ولكي «يتسنى المرء منزلة العمل الرفيعة»، يجب أن ينجز بنية العمل أولئك الذين «يتلقونها»، فمعنى العمل ليس معنى غير زمني، ولكنه معنى أولئك الذين «يتلقونها»، فمعنى «يتكون في التاريخ نفسه». وفي كل مرة «تتغير فيها شروط التلقي التاريخية والاجتماعية» يتغير المعنى فيها، إننا لنميز بين «فعل العمل وأثره» وبين تلقيه. فالأثر «يحدده النص» نفسه، وأما التلقي فيحدده المستقبلون. ولذا، يجب أن لانتصور العمل بوصفه ثابتاً، أي بالمعنى يتكون شكلاً ومضموناً بالحوار والجدل، فإذا تجاوز العمل جيله، فذلك لأن شكله يحافظ على معنى حاضر، يعد جواباً بالنسبة إلى زمن آخر إلى زمننا. ثمة حوار إذن بين «ذات حاضرة وخطاب ماضٍ». ولكن الأسئلة والأجوبة تكون ضمنية: ليس المقصود من هذا تعليمياً دينياً. ومن هنا، فإنه لا يكفي إذن، أن ندرس «انتاج» العمل الفني من خلال علاقة مع المعطيات الاقتصادية لزمّنه، كما يعتقد ذلك بعض الماركسيين؛ فالاستقصاء عن التلقي من خلال زمنه، هو وحده الذي يلامس «المواضيع الحقيقية، والاتجاهات الاجتماعية للتطور». ذلك لأن العمل يستلزم وجود «أفق انتظار أدبي». وإنه ليكون تبعاً لذاته، ولأثره الناتج، كما يستلزم وجود أفق آخر، اجتماعي، ينشأ عن «النمط الجمالي» للقراء. فهؤلاء يبدأون بفهم النص من خلال أفقه الأول. ولكنهم في تحليلاتهم يدخلون وينجزون حواراً مع فهمهم الخاص للعالم من خلال معنى حالي، ويحدد مجتمعهم، وطبقته، وسيرتهم الذاتية هذا الفهم نفسه. ويمكن «لاختلاط الأفاق» هذا أن يكون شاملاً، كما يمكنه أن يكون

التطابق المباشر في المتعة المحضة، أو أن «يأخذ شكلاً انعكاسياً: كالبعد النقدي في الاختبار، وملاحظة الاغتراب، واكتشاف الأجراء الفني، والإجابة على تدريب ذهني» وإن القارئ ليستطيع أن يرفض ضم هذه التجربة الأدبية إلى تجربته الخاصة. وإنما لنرى أن بإمكان هذا الاختلاط أن يكون أنياً ومعاصراً للعمل، أو أن يكون تعاقبياً، فينتج في عصر لاحق. كما يمكنه أن يكون حاملاً لمعنى «انتقال المعيار»، و«إبداع المعيار»، وهو «قطيعة المعيار» (ص 261).

يدرس جوس على سبيل المثال في الكتاب نفسه مسرحية «إيفيجيني» لراسين ومسرحية غوته، و«عذوبة البيت». وأنه ليدرّس كذلك «الشعر الغنائي لعام ١٨٥٧ بوصفه مثلاً لانتقال المعايير الاجتماعية بواسطة الأدب». ويقدم هذا الاستقصاء الثاني معلومات عن «الواقع اليومي فعالم البرجوازية» في القرن التاسع عشر. وأنه ليبين أن الشعر الغنائي، وليس الرواية فقط، يخبر عن الانتظار، وعن الرأي، وعن إيديولوجيا القراء. فهنا تكون الدائرة العائلية الصغيرة، حيث تنغلّق فيها السعادة البرجوازية على نفسها. ولقد أظهر جوس، منذ اللحظة التي كتب فيها دراسته عن «تاريخ الأدب: تحد لنظرية الأدب»، أنه كان يجب، لكي يقوم تاريخ الأدب على قواعد جديدة، أن ينظر إلى أن الأدب والفن لا ينتظمان في تاريخ منظم إلا إذا يكن تتابع الأعمال منصباً فقط على الذات المنتجة، ولكن أيضاً على الذات المستهلكة وعلى التفاعل بين الكاتب والجمهور». وهذا يعني أن الكاتب، كما كان ماركس الشاب يراه، يحول حساسية القراء. وإن هؤلاء بدورهم ليساهمون في «صنع التاريخ»، فهم ليسوا سلبيين ولكنهم عاملون. وهكذا، فإنه يمكن إعادة الروابط التي قطعها التاريخانية بين الماضي والحاضر فاستقبال القراء الأوائل يفترض مسبقاً وجود «حكم قيمة جمالي»: «ويستطيع هذا التصور الساذج والأولي للعمل أن يتطور من بعد وأن ينتمي من جيل إلى جيل، إلى أن يكون من خلال التاريخ «سلسلة التلقي» التي ستقرر أهمية العمل التاريخية، وستظهر منزلته في التراتب الجمالي». ويجب



على المؤرخ إذن أن يصنع تاريخ «التلقيات المتعاقبة»، ليقوم بهذا «استمرارية لا انقطاع فيها بين الفن الغابر وفن اليوم، بين القيم التي كرستها التقاليد وبين تجربتنا الحالية للأدب» (ص 46).

يقترح جوس والحال كذلك سبع أطروحات، تحدد القواعد التي يمكن للتاريخ الأدبي، بالاستناد إليها، أن يعيد كتابته. فالمورخ ينشغل «بالتجربة التي يقيمها القراء أولاً مع الأعمال» بدلاً من انشغاله بربط «الوقائع الأدبية» بشكل منسجم وإنه ليرتك نفسه تؤخذ في «السلسلة التاريخية لقراء المتعاقبين» (ص 47). فللمعمل الأدبي سمة جدلية (إشار إليها ينبغي في كليو، وذلك عندما رأى في القراءة الفعل المشترك للقارئ والمقروء) والوقائع ليست سوى البقية الباقية بهذه السيرة. ذلك لأن العمل من غير قراء يعيدونه حاضراً، فإنه يضع على عكس الوقائع التاريخية- كل فعل، وكل طاقة، كما يضع أخيراً كل وجوده. وتحدد الأطروحة الثانية أنه يجب على التحليل أن يعيد تكوين «أفق الانتظار» للجمهور الأول للكتاب، أي يعيد تكوين نسق المرجعيات التي تصدر عن ثلاثة عوامل رئيسية: التجربة المسبقة التي يمتلكها الجمهور عن الجنس الأدبي التي تشكل جزءاً منه. ويتعلق العامل الثاني بشكل الأعمال السابقة وموضوعاتها، والتي تفترض التجربة معرفتها مسبقاً. ويتعلق العامل الثالث بالتعارض القائم بين اللغة الشعرية ولغة الممارسة، بين العالم المتخيل والواقع اليومي» (ص 50). ولقد حدد في الأطروحة الثالثة أن مكتوباً جمالياً يقوم بين أفق انتظار الجمهور وبين التجربة للعمل، وكان النجاح، والفضيحة، والفشل هي عناصر تقيمه، فإن هذا المكتوب «ليستطيع أن يصبح معياراً للتحليل التاريخي»: ومن هنا، فإن بعض الكتب تكون جمهورها ببطء وتأخير شديدين. ولقد يعني هذا أنه ثمة «تاريخ أدبي للقراءة»، وذلك ماراه واينريش في عام 1967. وتقول الأطروحة الرابعة إنه بإعادة تكوين أفق الانتظار تماماً كما كان موجوداً في اللحظة الأولى لتلقي العمل، فإننا نفهم «الأسئلة التي يجب العمل عليها» أي نفهم كيف أن قراء ذلك الزمن قد استطاعوا فهمه. وتبعاً للأطروحة الخامسة، فإن جماليات التلقي

تطلب من كل عمل أن «يكون موضوعاً في السلسلة الأدبية التي يشكل جزءاً منها»: «فالكتب اللاحقة تستطيع أن تحل معضلات كانت قد تركتها الأعمال السابقة معلقة». وكذلك فإن الجودة تفسخ المجال أمام الإحياء. ومن ذلك مثلاً، نجد أن صعوبة الشعر المعاصر قد سمحت بإحياء شعر الباروك.

وتقول الأطروحة السادسة إننا نستطيع بشكل آني أن ندرك بوساطة نظرية التلقي نسق الأعمال المتزامنة. وإننا لنستطيع أن نحدث مقاطع في مسار التسلسل التاريخي، فللأدب نحو ثابت (أجناس، أساليب، صور) ودلالات متغيرة (مواضيع، نماذج عليا، رموز، استعارات). وعندئذ يستطيع المؤرخ أن يحدد الأزمنة القوية في التاريخ الأدبي. ويبقى على المرء أن يربط، وهذا هو قصد الأطروحة الأخيرة، بين التاريخ الخاص الذي يشكل التاريخ الأدبي، والتاريخ العام: «إذا بحثنا عن اللحظات التاريخية التي أثارت فيها الأعمال الأدبية انهيار المحرمات الأخلاقية المهيمنة أو التي أعطت للقارئ علم حل القضايا الضميرية من أجل سلوك حياته»، فإننا سنفتح على التاريخ الأدبي ميداناً جديداً. ذلك لأن الغاية لم تعد في إظهار كيف أن التاريخ ينعكس في النصوص الأدبية، ولكن في إظهار وظيفة «الإبداع الاجتماعي» التي ملأها الأدب .

وهكذا تبدوا جماليات التلقي في عصرنا وكأنها المحاولة الأكثر تجديداً من أجل تكوين علم اجتماع للأدب غير ماركسي، وكذلك من أجل إحياء التاريخ الأدبي وتحريكه. فقص أثر القراءات المتتابعة لعمل ما عبر أجيال نقدية عديدة لا يعد تكويناً لحماقة، ولكنه ينمي جدل الكتاب والقراءة الجماعية، ويكشف عن وجوه جديدة دائماً لكاتب ما، وأسطورة ما (إيفيجيني)، وكلمة ما (يكون ذلك في الفصل الرابع الذي كتبه جوس عن الكلمة «الحديثة»). وكان غوستاف لانسون قد استشعر هذا بفكره النفاذ، وذلك عندما كتب في نهاية حياته المهنية قائلاً: «عندما يتعلق هذا المعنى الدائم والمشارك بنصوص ذائعة الصيت عالجتها كل أجيال النقاد والقراء،

فإنه يستطيع أن يحدث أثراً بكونه كبيراً وعادياً : وسيكون جيداً أن لا يأنف المرء من العودة إليه وأن يعلق عليه كل المتغيرات المتفاوتة التي أغناها اختلاف العصور والعقول. كما سيكون جيداً أن ينطلق المرء من هنا لكي يذهب بحثاً عن المعنى الأصلي، وعن معنى المؤلف، ثم عن معنى الجمهور الأول، وعن معاني كافة الجماهير، الفرنسية والأجنبية، التي التقاها الكتاب على التوالي. فتاريخ كل عمل رائع يتضمن مختصراً لتاريخ الذوق وحساسية الأمة التي أنتجته، والأمم التي تبنته» (دراسات فرنسية /1/1/ 1925، ص 42).



## الفهرس

### I- القسم الاول : النقد والوعى (مدرسة جتيف)

- 1- مارسيل ريمون ..... 5
- 2- البير بيغان ..... 14
- 3- جورج بوليه ..... 23
- 4- جان روسيه ..... 32
- 5- جان ستاروبافسكي ..... 40

### II- القسم الثاني : النقد والخيال

- 1- غاستون باشلار ..... 49
- 2- جان بيير ريشار ..... 57
- 3- جيلبير ديراند ..... 66
- 4- الكون والخيال ..... 74
- 5- نورثروب فراي ..... 79

### III- القسم الثالث : النقد في التحليل النفسي

- 1- فرويد ..... 83
- 2- شارل بودوان ..... 91
- 3- شارل بورون والنقد النفسي ..... 99
- 4- التحليل النفسي للنص ..... 108
- 5- التحليل النفسي للمؤلف ..... 113

### IIII- القسم الرابع : علم اجتماع الأدب

#### I- المؤسسون

- 1- جورج لوكاتش ..... 116
- 2- لوسيان غولدمان ..... 127
- 3- ميخائيل باختين ..... 132
- 4- مثال : ميشيل كروزيه ..... 135
- II- النقد الاجتماعي ..... 136

#### III- جماليات التلقي

- 1- علم اجتماع القراءة ..... 142
- 2- جماليات التلقي ..... 149



صدر حديثاً:

## الأعمال الكاملة «رولان بارت»

ترجمة: د. منذر عياشي

\* لغة النص 1

\* مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص 2

\* نقد وحقيقة 3

قريباً:

\* هسهسة اللغة

\* أساطير

\* - الحداثة مالكوم برادبري

\* - أطيف ماركس جاك ديريدا

\* - جهن اللغة وممارسة النص القرآني  
د. منذر عياشي

\* - صراع الحضارات صموئيل هانتنتون

\* - الإسلام وصراع الأفكار د. منذر عياشي

\* - موت الحداثة جيانى فاتيما

\* - الإسلام وإنتاج الأفكار د. منذر عياشي

الهيئة الاستشارية:

---

د. منذر عياشي  
د. عبد الملك مرتاض  
د. عبد النبي اصطيف  
د. عبد الله الغدامي  
د. قاسم مقداد

---

المدير المسؤول:

نادر السباعي

---

ص.ب 6333 - حلب - سورية

B.P. 6333, ALEP, SYRIE



تطلب منشوراتنا  
في المغرب العربي من



المركز الثقافي العربي

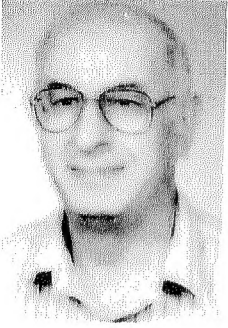
---

□ بيروت/الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.  
\* ص.ب/113-5158/ \* هاتف/343701-352826/ \* تليكس/NIZAR 23297LE/

---

□ الدار البيضاء/ ● 42 الشارع الملكي - الأحباس  
\* ص.ب/4006/ \* هاتف/307651-303339/  
● 28 شارع 2 مارس \* هاتف/271753 - 276838/ \* فاكس/305726/.





دارس وناقد سوري.

ولد عام 1945 . درس المرحلة الجامعية في فرنسا

— وحاز على الدكتوراه في الدراسات اللسانية في جامعة

«إكس أن برفانس» عام 1979 . كما حاز على شهادة

دكتوراه من «مصر» — كلية دار العلوم في علم اللغة، عام

1983 .

من كتبه:

— قضايا لسانية وحضارية (1991) — دار طلاس —

دمشق.

— مقالات في الأسلوبية (1991) — اتحاد الكتاب

العرب دمشق.

— النقد والمعيار (تحت الطبع).

— وقد ترجم عدداً من الكتب، منها:

علم الدلالة — علم الإشارة — الأسلوب والأسلوبية

لبير جيرو . كما ترجم كتباً أخرى لتودورف (مفهوم

الأدب) ولرولان بارت (مدخل إلى التحليل البنيوي

للقصص — نقد وحقيقة) وله مجموعة قصصية للكاتب

الاطالي دينو بوتزاتي، نقلها عن الفرنسية اليلة ناعمة) .

قدم عدداً من الدراسات. نشر بعضها في عدد من

المجلات العربية.

يعمل حالياً في جامعة الملك عبد العزيز بجدة في

المملكة العربية السعودية.



لم يعد النقد كما كان في الماضي يحمل على عاتقه تقديم شهادة ميلاد للكاتب ، يتبع فيها تاريخه ومراحل حياته ويكشف عن ميوله الشخصية والأدبية ، ويحاول أن يضع تحت مجهر البحث سراً من أسراره . كما لم يعد طناً يفيض به الناقد مدحاً أو ذماً . قدحاً أو تقرّباً لعمل من الأعمال . وكذلك لم يعد النقد يُعنى بالكيفيات والمعايير والقواعد التي يجب على الكاتب أن يتقيد بها ليدخل إلى مملكة الأدب وفردوسه الجميل .

لقد أصبح النقد كما يرى ( جان إيف تادييه ) « مساوياً للأعمال التي يحللها » . وأصبح النقاد « كتاباً بارعين أيضاً » . إنهم يمارسون الكتابة في سطور الآخر ، ويخرجون منها إلى نصوصهم الخاصة ، وقد أدى هذا المنحى لا إلى موت المؤلف فحسب ، ولكن إلى انتفاء الناقد في الوقت نفسه . وأصبحت الكتابة في مواجهة الكتابة هي جوهر العملية النقدية . فليس هناك هوية خاصة تدعى « المؤلف » ، كما أنه ليس هناك هوية خاصة تدعى « الناقد » !